

## الأصول الرومانسية في الشعر الجاهلي

(شعر التأمل)

أ.م.د حسن دخيل الطائي  
كلية التربية - صفي الدين الحلي

## المقدمة

عُرِفَ عن الشعر الجاهلي، بأنه شعر واقعي، غني بتصوير الواقع في العصر الجاهلي، وما يضطرب به هذا الواقع، من أحداث وصراعات؛ فقد كُرسَ معظم هذا الشعر، للدود عن القبيلة، وإلى نشر مفاخرها، والتغني بانتصاراتها، علاوة على تناوله بعض جوانب الحياة الاجتماعية، مثل تصويره لبعض أنماط معيشة الناس في تلك الحقبة، التي اتسمت بضئ العيش، وسوء الأحوال المعيشية بسبب قلة الموارد في تلك البيئة الصحراوية، فكان الجوع يضرب أطناً في طول الصحراء وعرضها، وضاق الناس به ذرعاً، ونجم عن ذلك ظواهر اجتماعية مدانة، منها وأد البنات، والسلب، والنهب بين القبائل لكل ما تطالعه أيديهم في أثناء الغزوات التي دارت بينهم في ذلك العصر، فضلاً عما قام به الصعاليك، من أعمال السطو، والنهب، واعتراض سبيل القوافل، وسرقة ما يمكن سرقة، ونجد ذلك واضحاً في شعر الصعاليك؛ وفي ضوء ما تقدم كان الشعر الجاهلي، صورة صادقة لمجتمع، وكاد يكون وثيقة تاريخية، تحكي حقيقة ذلك المجتمع، وكانت شخصية الشاعر تذوب في إطار الجماعة، وهو يتناول هذه الموضوعات غير أن تلك الأوضاع المزرية من حروب، وقتل، واضطراب كان فيها الإنسان لا يأمن على نفسه، ولا على ماله، في مجتمع يعاني من الفقر المدقع الذي يصل في كثير من السنين إلى درجة المجاعة، علاوة على ما تبعته هذه الصحراء القاحلة الممجة الممتدة على طول البصر، من وحشة، وخوف في نفوس أبنائها الذين لا يعرفون ما تُخبئه لهم، فضلاً على ما يلقيها من غموض؛ ذلك كله جعل طائفة من شعراء العصر الجاهلي، تصطبغ نفوسهم بالحزن، وتستولي عليها الكآبة، وكان ذلك سبباً في ظهور هذا الضرب من الشعر، وهذا ما جعل الشاعر الجاهلي يُخصّص جزءاً من شعره؛ ليُعبرَ عن همومه الذاتية، وعما تختلج به نفسه من مشاعر وأحاسيس نحو الحياة والموت، والطبيعة، فجاء هذا الشعر ذاتياً بكل ما تحمله هذه الكلمة؛ فقد سجّل فيه الشاعر الجاهلي ما يخطر على باله، من مشاعر وأحاسيس نحو النفس الإنسانية، والوجود. وهو يختلف عن الشعر الواقعي الذي غني بالحديث عن السيوف، والخيول، والكرّ والفرّ، وما ينجم عن هذه الحروب من مأس، وويلات، وما يُحرز من انتصارات، أو ما يقوم به الصعلوك، من مغامرات، وجبل من أجل أن ينتزع لقمة عيشه. وتناول البحث أبرز الموضوعات التي دار عليها هذا اللون من الشعر، وهي التأمل في الحياة والموت، والخير والشر، والشباب والمشيبي، والطبيعة؛ فقد حاول هؤلاء الشعراء التعمق في أسرار هذه الموضوعات، ومعرفة أسرارها، وكنهها، غير أنهم رجعوا ناكسين، فلم ينفقوا إلا عند ظواهرها، فلم يشفوا غلة نفوسهم الظمأ لمعرفة المجهول، فظلّ الموت شبحاً يلاحقهم، اضطربهم في النهاية إلى الاستسلام لإرادته، والتسليم بما تكتبه لهم الأقدار، وكذلك في الموضوعات الأخرى وقف الشاعر الجاهلي عند حدود ما اكتسبه من الحياة، في أثناء تجربته التي عاش فيها، فعلم مثل هذه الظواهر بما يمتلكه من تجربة، وما توافر له من ثقافة ومعتقدات، لذلك أطلقنا على هذا الضرب من الشعر: الأصول الأولى للاتجاه الرومانسي، ولم نقل الاتجاه الرومانسي؛ لأن الشاعر الجاهلي، لم يتعمق في الأشياء، ولم يُعبرَ عن مشاعر، وأحاسيس، وعواطف تتسم بالنضج، كما كان يفعل الشاعر الرومانسي في العصر الحديث، يُزاد على ذلك أن هذا الشعر يشبه الشعر الرومانسي في كون صاحبه يُعنى بالتغني بالأمه، وأحزانه، ويُعبرَ عما يعانيه من اضطراب، وقلق، ويأس في هذه الحياة، فضلاً عن أن بعض الشعراء، سجّلوا سبقاً في الميدان الرومانسي، فمن الشعراء من وقف على القبور، وسجّل خواطره مثل عدي بن زيد العبادي، وهو بعمله هذا سبق شعراء مدرسة القبور البريطانية الحديثة الذين كانوا يقفون ليلاً في المقبرة، ويسجلون خواطرهم، كذلك نظم بعض الشعراء في العصر الجاهلي خواطرهم، ومشاعرهم بقصيدة ذات أداء قصصي صوّروا فيها مشاعرهم نحو الحياة والموت، وما يلاقيه الإنسان في الحياة الأخرى بقصائد ذات نزعة خيالية زاهرة بمشاعر الخوف، والرغبة، والقلق، مثل أمية بن أبي الصلت. وبهذا يكون هؤلاء الشعراء قد سبقوا شعراء الرومانسية الحديثة الذين نظموا كثيراً من مشاعرهم، في قصائد تشبه شعر الأقصوصة، ويُعد ذلك واضحاً في شعر جماعة الديوان، وأبولو. وظهر هذا الاتجاه الرومانسي، جلياً، في الخيال، فقد جاء أصحابه، بصور شعرية، تُثير التأمل، وتبعث مشاعر وعواطف شتى، في نفوس مُتلقيها، ولا تحفل هذه الصور الفنية بالتشبيهات الجسدية، أو المادية، بل تُعنى بالتشبيه الذي يستطيع الشاعر، أن ينقل إلى المُتلقي، خلاصة ما استودع في ذهنه من مشاعر، وعواطف، لا أن يتسابق في ميدان الألوان، والأحجام، والأشكال، فإن مثل هذه الصور التي تحفل بالمحسوسات، يتساوى فيها الشاعر، مع خيال الإنسان العادي، وإن مثل هذه الآراء في الخيال، دعا إليها الرومانسيون المحدثون، ووجدناها مجسدة في شعر هؤلاء الشعراء في العصر الجاهلي، فصوّروا مشاعرهم الشعرية زاهرة بالمشاعر والعواطف. وخلاصة ما أريد قوله، أن هذا البحث يُسلط الضوء على هذا الاتجاه الشعري الوليد، الذي لم يبلغ مرحلة النضج، غير أنه يكتسب أهمية، في كونه بداية رائدة لمدرسة شعرية أصبح لها شأن في العصر الحديث، وكان له الفضل في إغناء تجربة الشعراء العرب الرومانسيين، علاوة على أن هذا الاتجاه عمل على التمهيد لنشوء شعر الغزل العذري، وشعر الزهد، والشعر الصوفي، وغيره من أنواع الشعر ذات الاتجاه الذاتي، الذي يُعنى بتصوير المشاعر والعواطف.

### الشعرُ التأملي

نظم الشاعر الجاهليُّ شعراً تأملياً، يُشبهُ في كثير من الأحيان الشعرَ الذي نظمهُ الرومانسيون في موضوعات التأمل في الطبيعة، ومظاهر الكون، والحياة والموت، والنفس الإنسانية، وحاول أن يتعمق في جوهر الأشياء، لعلهُ يدركُ كنهها، ويعرف أسرارها، ليُشيعَ نهمه من معرفة خفايا الكون، وليحلَّ رموز الغموض التي تحيطُ بعالمه الذي يعيش فيه؛ لأنَّ مثلَ تلكَ المشاعر التي يحسُّ بها الشاعر الجاهلي كانت سبباً في تشاؤمه وخُزْنيه وقَلْبِهِ في هذه الحياة، وكذلك فإنَّ مبعثَ القلق عند الشاعر الجاهلي، وجوْده في بيئة صحراوية مَترامية الأطراف يلفها الغموض، إذ يمتد فيها بصر الإنسان مسافات طويلة من دون أن يعرف ما وراء تلك البحار الرملية، بل المحيطات، من أمواج الرمال التي تُكوِّن الصحراء وما تتطوي عليه من أشياء؛ فإنَّ مثلَ هذا المنظر يبعثُ الخوف في نفس الشاعر الجاهلي؛ لما تُحْبِئُهُ هذه المتاهات السحيقة من أسرار وخفايا، ممَّا جعلَ هذه الصحراء لا تخلو من وحشة ((فإنَّ العربيَّ لم يبرأ من الشعور بوحشتها ورهبتها، ممَّا جعلهُ يتصوَّرُ فيها ما لا أصلَ له، ويتخيَّلُ فيها ما لا حقيقةَ له، فاعتقدَ أنَّها مسكنُ الجنِّ، ويرى شخصَ الغيلان))<sup>(١)</sup>، ويمكننا أن نلمسَ ما قلناه في بيت الشاعر الأعشى، وهو يصفُ الصحراء:

وبلدةٍ مثلَ ظهْرِ الثَّرسِ موحِشةٍ  
لا يتمنَّى لها بالقيظِ ركنُها  
للجنِّ بالليلِ في حافاتها زجلٌ  
إلا الذين لهم فيما أتوا مهلٌ<sup>(٢)</sup>

ويبدو واضحاً أنَّه ((شبهَ الصحراءَ بظهر الدرع في انبساطها، وإفقارها؛ لأنَّها لا شيءَ فوق ظهرها... جردت أرضها وعريت صفحتها، تسمع للجنِّ بها أصواتاً وجلجلةً، وهو أخوف ما يخشاه قاطع الصحراء أو يتخيَّله، إذا تفرَّدَ فيها، وإنَّ هذه الصحراء المنبسطة، واللاهبة، لا يسمو إلى ركوبها، إلا الذين لهم فيما أتوا عُدَّةً، وقوَّةً، لشدَّتها، وامتلكوا الهداية والمعرفة بدروبها، وشعابها))<sup>(٣)</sup>، وممَّا زاد من خشية الشاعر الجاهلي، أنَّ هذه الصحراء قاسية على قاطنِها بكلِّ شيء، في مناخها الذي تضطربُ فيه درجات الحرارة بين الليل والنهار، فتلسعهم ببردها القارص ليلاً، ويلفح وجوههم لهيبُ حرِّها الوهاج، يُضاف على أنَّها قاحلة مُحملة، وقليلة الموارد. وفي كثير من السنين، تحلُّ بأهلها المجاعة، وبخاصة عندما لا تجود السماء عليهم بالمطر الوافر، الذي يؤمِّنُ لهم العشب الذي ترعاه أنعامهم، فيصيدهم الجذب والقحط، وتنزل بهم وبإبلهم المهالك، والمأسي، وتنسف أمالهم البسيطة على حين غرة، وتجعلُ أهل الصحراء يلاقون مصيرهم المحتوم وجهاً لوجه في هذه الصحراء التي ليس فيها شيء يُعينهم على تجاوزِ محنتهم.

ونجم عن قسوة هذه الحياة أن تفتشت في مجتمعهم ظواهر مُدانة مثل اللصوصية، والصعلكة، وقُطَاع الطُّرُق، والسلب والنهب، والحروب، والغزوات التي تنشأ بين القبائل حين تتخاصم على مناطق النفوذ، أو منابع المياه، أو بسبب العادات القبلية كالنار أو الرهان، أو عقر ناقة. ويمكننا أن ندرك ما كانت تفعله الحرب من مأس وويلات، في قصيدة زهير بن أبي سلمى إذ يقول في حرب داحس والغبراء التي اندلعت لسبب تافه، وهو رهان حول سباق الخيل، وذهب ضحيَّتها خلقٌ كثير، يقول:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم  
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة  
وما هو عنها بالحديث المُرجم  
وتضر إذا ضرَّيتموها فتضرم  
وتلقح كشافاً ثم تنج فتثم<sup>(٤)</sup>

ويبدو واضحاً من هذه الأبيات حجمُ المعاناة التي كان يُقاسيها المجتمع الجاهليُّ، من جرَّاء هذه الحروب العبيئية، التي أرقَّتْهم، وقصَّت مضاجعهم، وخيبت آمالهم، وأشاعت بينهم حالة من التشاؤم والحزن. كلُّ ما تقدَّم جعلَ الشاعر الجاهليَّ يزدادُ خشيةً من هذه البيئة الصحراوية الموحِشة، والمحفوفة بالمخاطر، فخفق قلبه خوفاً، فراح يُجِيلُ النظر في حياته ويتأملها بتأملات بسيطة، تحكي طبيعة بيئته الصحراوية، التي تتسم بالانبساط والوضوح وامتداد البصر في أرجائها، وانكشاف معالمها، لذلك نجد أنَّ تأملاته تقف عند ظواهر الأشياء، ولا تتعمق في جوهرها كثيراً، ولا تستبطن مكانها، ومن هذه التأملات التي عبَّرَ من خلالها الشاعر الجاهلي عن قَلْبِهِ واضطرابه، وما يلفُ نفسه من حُزن، وكآبة، وانكسار نفسي، حين يرى حياته لا تستقرُّ على حال، ولا يستطيع أن يأمن جانبها، ممَّا دفعه ذلك أن يصبَّ جامَ غضبه على الدهر، ورأه خووناً غادراً، وسببَ آلامه، وإنَّ مثلَ هذه الموضوعات التي تتناول الحياة والموت، من الموضوعات الرئيسة التي دار عليها شعر الشعراء الرومانسيين. وقد جسَّدَ الشاعر الجاهليُّ صراغهُ مع الزمن من خلال الموضوعات الآتية:

### الحياة والموت

نجد أنَّ موضوع الحياة والموت، أرقَّ الشاعر الجاهليُّ، ممَّا جعله يبذلُ جهداً كبيراً، من أجل أن يعرف شيئاً من أسرارهِ، غير أنَّ مسعاه قد خاب، ولم يظفر إلا بما لقنَّته به الحياة، وما تجرَّعه منها، من مصائب وويلات، لذلك نجدُ ((أنَّ نظرَ الجاهليين إلى الموت ظلَّ مرتبطاً بمعادلة غير متكافئة الطرفين، فصانع الموت هو

(١) الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار النهضة للطبع والنشر، مصر، القاهرة: ١٥١.

(٢) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر: ٥٩.

(٣) نصوص من الشعر الجاهلي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي ود. محمود عبد الله الجادر ود. بهجت عبد الغفور الحديشي: ١٣٣، ١٤٤.

(٤) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط٣، مطبعة الغوثاني، دمشق، ٢٠٠٨ م: ٢٦-٢٧.

الزمن، أو الدهر، الذي يُرادفه كثيراً... ويستقر في الوعي أنَّ الزمن قاتلٌ خفيٌّ لا يفلتُ أحدٌ من برائته<sup>(١)</sup>، ويبدو ذلك واضحاً في شعر الشاعر النابغة الجعدي وهو يقول:

ولا تأمنوا الدهر الخوون فبأنه  
على كلِّ حالٍ بالورى يتقلب<sup>(٢)</sup>

ومثله قول الشاعر زهير بن أبي سلمى الذي يعنف الدهر، ويوبخه لما يفعله به، وبقومه، ثم يقف مُستسلماً أمام إرادته التي لا تُفهر، فيقول:

فاستأثر الدهر الغداة بهم  
والدهر يرميني ولا أرمي

لو كان لي قرناً أناضلة  
ما طاش عند حفظة سَهْمِي

يادهز قد أكثرت فجعتنا  
بسرأتنا وقرعت في العظم

وسلبتنا ما لست مُعقِبَ به  
يادهز ما أنصفت في الحكم<sup>(٣)</sup>

وكانت مثل هذه المشاعر، مصدر نكد لحياة الشاعر الجاهلي، الذي أخذ يُمعن النظر في حياته، ويتأملها جيداً، لعلّه يجد فيها ما يهدئ روعه، ويُزيح عنه كابوس الخوف، غير أنَّ خلاصة ما وصل إليه من تأملات لحقيقة الحياة، في كونها لا تعدو الزمن الذي قسّمه الإنسان إلى ليالٍ وأيامٍ وأشهرٍ وسنين، وإنَّ هذه الأيام، والأشهر، والسنين، تشبه المطايا التي يمتطيها الإنسان، فتمضي به نحو مصيره المحتوم، وهو تصويرٌ بارعٌ يذكّرنا بشعراء الرومانسيّة، وهم يُصوِّرون المواقب البشريّة وهي تشقّ طريقها في الحياة، فيتساقط كثيرٌ من أبناء البشر في أثناء هذه الرحلة المُضنية، وهم يقطعون الأيام والسنين في حياتهم<sup>(٤)</sup>، وكذلك بما رآه بعض الرومانسيين الذين ييكون على تساقط سنواتٍ عمرهم، كما تسقط أوراق الشجر في فصل الخريف<sup>(٥)</sup> التي هي إيذانٌ برحيل الحياة، والسير نحو الذبول والموت، وفي ذلك يقول حاتم الطائي:

وما هي إلا ليلة، ثم يومها  
وحوّل إلى حوّل، وشهر إلى شهر

مطايًا يُقرّين الصحيح إلى البلى  
ويُدنين أشلاء الهمام من القبر<sup>(٦)</sup>

ويقول حاتم الطائي في المعنى نفسه:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد  
كذلك الزمان بيننا يتردّد

يردّ علينا ليلة بعد يومها  
فلا نحن ما نبقي ولا الدهر ينفذ

لنا أجلٌ إمّا تناهى أمامه  
فنحن على آثاره نتورّد<sup>(٧)</sup>

فقد أحزن تعاقب الأيام حاتم الطائي، ونعّص عيشه، عندما أدرك ما ينجّم عن مجيئها، وتعاقبها، مع الزمن، فهي تقوذه نحو الهرم، والشيخوخة، والفناء، وكان الشاعر اقترب ممّا قاله الفيلسوف هرقلitus: ((أنت لا تنزل إلى النهر مرتين))<sup>(٨)</sup>؛ لأنّ الحياة متغيّرة، وإنّ التغيّر يطال الأشياء جميعها، في كلّ لحظة من لحظات حياتها، وأنّ لا شيء يظلّ على حاله، بل أنّ الكلّ يمضي نحو الزوال والفناء. وهذا ما دعا الشاعر الجاهلي إلى الحزن وهو يستقبل يومه الجديد؛ لأنّه رأى فيه نذير شؤمٍ يحمل معه شبح الموت، فيقول عمرو بن الأهم:

يطاوحني يومٌ جديدٌ وليلة  
هما أبليا جسمي وكلّ فئى بالي

إذا ما سلخت الشهر أهلت مثله  
كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلاي<sup>(٩)</sup>

ومثل هذا المعنى يُردّده عبيد بن الأبرص في قوله:

يا عمرو ما راح من قوم ولا ابتكروا  
إلا وللموت في آثارهم حادي

يا عمرو ما طلعت شمس ولا غربت  
إلا ثقرب أجال لميعاد<sup>(١٠)</sup>

ويمضي الشاعر الجاهلي في تأمله للحياة والموت، ويُعنى بهذه الثنائية التي كانت موضوعاً بارزاً استأثرت باهتمام شعراء الرومانسيّة في العصر الحديث، فكان لرؤية الشاعر الجاهلي ((في نسيج الوجود خيطان: خيط

(١) دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٠م: ٢٢٨.

(٢) ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصمد، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م: ٢٩.

(٣) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ٢٨٢.

(٤) ينظر: الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمادي، د. فائق مصطفى أحمد، دار الكتب، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٧م: ٢١٨.

(٥) ينظر عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا، د. عبد الفتاح عبد الحسن الشطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩م: ٢٥٦.

(٦) ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدّم له ووضع هوامشه ونهارسه: د. حتّا نصر الجني، دار الكتاب العربي، بيروت: ١١٠.

(٧) ديوان حاتم الطائي: ٦٤. إمامه: طريقه الواضح، تنوّد: تنوّد.

(٨) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت: ١٧.

(٩) الحاسة البصرية، لعلّي بن أبي الفرج البصري (ت ٦٥٩هـ)، تحقيق: د. أحمد عبد المعيد خان، الهند، ١٩٦٤م: ٤١٦.

(١٠) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصّار، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٩٧٥م: ٤٨.

الحياة، وخيظ الموت، والموت والحياة سُدَّاهُ الوجود وَلُحْمَتُهُ<sup>(١)</sup>، ورأى الشاعر الجاهلي ثنائية الحياة والموت في الطلل الذي كان عامراً بأهله الذين نصبوا الأثافي، وطهوا الطعام، ثم رحلوا عنه، وأصبحت ديارهم مقفرة، موحشة تسكنها الحيوانات، بعد أن وجدت فيها مكاناً آمناً خالياً من البشر، ثم يحاول الشاعر عبيد بن الأبرص أن يتعمق في هذا الموضوع غير أنه لم يأت بشيء جديد سوى بعض الحكم التي استلهمها من تجاربه الحياتية، وهو يقول:

إِنْ بُدِّلَتْ أَهْلُهَا وَحُوشُهَا      وَغَيَّرَتْ حَالُهَا الْخُطُوبُ  
أَرْضٌ تَوَارَتْهَا شُجُوبُ      وَكُلٌّ مِنْ حَلْهَا مَخْرُوبُ  
إِمَّا قَتِيلًا وَإِمَّا هَالِكًا      وَالشَّيْبُ شَيْئٌ لِمَنْ يَشِيبُ<sup>(٢)</sup>

وظلَّ شبح الموت يلاحق الشاعر في العصر الجاهلي، في يقظته، ونومه، ويلوح له كما تلوح له الشمس عند شروقها وغروبها، فيذهب عنه، ويجيء إليه، فينغصص عليه حياته، ويحيلها إلى حياة كئيبة حزينة، وبخاصة حين تأمل الحياة بعمق، ثم خرج بهذه الرؤيا، وهي أنَّ حياة الإنسان مهما طالَّت، فلا بُدَّ لها أن تقف، ويعقبها الموت، وعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة ويضعها نصب عينيه، ولا يغتر بطول الحياة؛ لأنَّ للدهر غولاً تتربص به سوءاً، وتبغى الانقضاء عليه، واغتياله، وإهلاكه في أية لحظة تشاء، وفي ذلك يقول الشاعر أمية بن أبي الصلت:

كُلَّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا      صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا  
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر      غولة الدهر إنَّ للدهر غولاً<sup>(٣)</sup>

ويأتي الشاعر امرؤ القيس بالمعنى نفسه، بعدما جعل الدهر ذاته، غولاً غدوراً لا يؤمن جانباً، يمكن له أن ينقض على حياة الإنسان، ويطفى شعلة الحياة، ويجهض آماله مما كان سبباً في حزن امرئ القيس في هذه الحياة، فيقول:

أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنَّ الدَّهْرَ غَوَلٌ      خُتِرَ الْعَهْدُ يَلْتَهُمُ الرِّجَالُ<sup>(٤)</sup>

إنَّ مثل هذه المشاعر التي يحسُّ من خلالها الشاعر الجاهلي أنَّ الخلود في هذه الحياة ضربٌ من المستحيل، وإنَّ الموت واقعٌ في الحياة، ولا رادَّ له قلبت حياة الشاعر عدي بن زيد، رأساً على عقب، من حياة ينعم بها ببال صافٍ، وهو ينغمس بطيب الحياة، ويقطف لذاتها، وينعم بها، إلى ما يشعره أنَّ أيامه تمضي بسرعة إلى نهاية محزنة، ممَّا جعله يُمسي مُكْتَنِبًا حزيناً كثير الهموم يورقُ ما ينتظره من مصير مؤلم، وهو يرى الحياة كالشهاب تضيء، ثم تنطفى، وينتهي كل شيء، وفي ذلك يقول:

فإن أمسيث مُكْتَنِبًا حزينًا      كثير الهَمِّ يشهدني الحذارُ  
فقد بُدِّلَتْ ذاك بِنُغَمِّ بَالٍ      وَأَيَّامٍ لِيَالِيهَا قِصَارُ  
بأنَّ المرءَ لم يُخْلَقْ حديدًا      وَلَا هَضْبًا تَوْقَاهُ الْوَبَارُ  
ولكن كالشهاب فثمَّ يخبو      وحادي الموت عنه ما يحارُ  
فهل من خالدٍ إمَّا هلكنا      وهل بالموت - يا للناس - عارُ<sup>(٥)</sup>

ويحاول الشاعر الجاهلي أن يخفف من وطأة الموت على نفسه، بتعليل النفس بأنَّ الموت واقعٌ على الناس جميعاً، وما عليه إلا أن يستسلم له، ويرضى بما كتبه له الأقدار، كما قال بشر بن أبي خازم:

لا أرى النَّائِبَاتِ عَدِيدِينَ حَيًّا      لا لِعَدَمٍ وَلَا لِكَثْرَةِ مَالٍ<sup>(٦)</sup>

غير أنَّ بعض الشعراء لجأوا إلى ذكر بعض النماذج من الرجال العظام في عصرهم ممَّن طالهم الموت، على الرغم ممَّا كانوا يتمتعون به من جاهٍ وسلطان في حياتهم، ورأوا في هذه النماذج ما يهون عليهم أمر الموت، فقال امرؤ القيس:

أرْجِي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لَيْئًا      وَلَمْ تَغْفَلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ  
وَأَعْلَمْ أَنَّي عَمَّا قَلِيلٍ      سَأَنْشَبُ فِي شَبَابٍ ظَفَرٍ وَنَابِ  
كما لا قى أبى خُجْرٍ وَجْدِي      وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالْكَلابِ<sup>(٧)</sup>

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ط ٢، ١٩٨٢م: ١٦٦.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص: ١١.

(٣) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بحجة عبد الغفور الحديفي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥م: ٣٤٦.

(٤) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥: ١٥٠.

(٥) ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبار المعبود، بغداد، ١٩٦٥م: ١٣٢-١٣٣.

(٦) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزّة حسن، دمشق، ١٩٧٢م: ١٧١.

ومثله قول الأسود بن يعفر:

فإن يك يومي قد دنا وإخاله  
فقبل لي مات الخالدان كلاهما  
وعمرؤ بن مسعود وقيس بن خالد  
وأسبابه أهلكن عادًا وأنزلت  
كواردة يومًا على غير منهل  
عميد بني حجان وابن المفضل  
وفارس رأس العين سلمى بن جندل  
عزيزًا يغني فوق غرفة موكل<sup>(١)</sup>

والشاعر هنا ((لم يكن يذكر الذين صرعه الموت من أعزة قومه، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك، فذكر عادًا)) ليقرر القناعة بأن منعة الغابرين الذين تحولت سيرهم إلى ما يشبه الأساطير، لم تكن ذات جدوى هي أيضًا في مواجهتهم للمصير المحتوم<sup>(٢)</sup>. غير أن معنى الخلود نجده واضحًا في شعر السموال، وهو يرى أن الخلود الذي يبغيه الإنسان في حياته، هو ضرب من الوهم، وكل حي هالك، ولا بد للإنسان أن يعرف هذه الحقيقة، ويؤمن بها، ويكون على بينة منها، فيقول:

إن امرءًا آمن الحوادث جاهل  
لا تبعذن فكل حي هالك  
يرجو الخلود كضارب بقداح  
لا بد من تلف فبن بفلاح<sup>(٣)</sup>

ويردّد المعنى ذاته أبو زبيد الطائي في مرثيته لأخيه بعدما رأى أن طول الحياة لا يدلّ على سعادة الإنسان، ما دامت هذه الحياة مهما طالّت، فسوف يعقبها موت مما يجعل حياة الإنسان غير سعيدة؛ لأنّ تذكر الموت يُنغص على صاحبها عيشه، فيقول:

إن طول الحياة غير مسعود  
ويزدّد المعنى ذاته الشاعر قيس بن الخطيم، فيقول:

ومن يك غافلًا لم يلق بؤسًا  
تناوله بنات الدهر حتى  
فقل للمثقة عرض المنايا  
ينخ يومًا بساحته القضاء  
يتلمّس كما انثلم الإناء  
توق، وليس ينفعك الوقاء<sup>(٤)</sup>

غير أن هناك رؤيا أخرى للموت، وجد فيها الشاعر الجاهلي الموت بأنه الخلاص من رحلة المتاعب، فالحياة في نظر هؤلاء الشعراء مليئة بالأسقام والأحزان، وإن الإنسان يتعذب فيها، ويشقى في أتونها، فيأتي الموت ليضع حدًا لحياته التي ضاقت بها ذرعًا، وإن مثل هذه الرؤيا تشبه ما دعا إليه الرومانسيون في العصر الحديث؛ إذ كانوا يحبون الموت ويدعون إليه، بعدما رأوا فيه المنقذ لهم من هذه الحياة التعيسة<sup>(٥)</sup> التي يعيشونها، ونجد مثل هذه الدعوة في شعر الأعشى وهو يقول:

لعمرك ما طول هذا الزمن  
يظل رجيمًا لرب المنون  
وهالك أهلي يجنونه  
وما إن أرى الدهر في صرّفه  
على المرء، إلا عناء معلن  
وللسقم في أهله والخرن  
كآخر في قفرة لم يجن  
يغادر من شارخ أو يقن<sup>(٦)</sup>

ويكاد طرفه بن العبد يردّد المعنى ذاته الذي قاله معظم الشعراء الجاهليين، وهو أن الموت واقع على الجميع، ولم ينخ منه أحد، وأن حبله المتين قد ضرب على أعناق البشر جميعهم، ولم يبق سوى ما تأمر به الأقدار، حينها يقاد الإنسان إلى حقيقه، فيقول:

لعمرك أن الموت ما أخطا الفتى  
متى ما يشأ يومًا يقذه لحنفه  
وربما كان هذا الشعور هو الذي جعل طرفه بن العبد حزينًا، كئيبيًا، يائسًا من الحياة، يتغنى بأحزانه على

شاكلة الرومانسيين، ويعيش غربه في حياته، وينطوي على نفسه، ويهرب من واقع إلى احتساء الخمر، أو إلى

(١) ديوان امرئ القيس: ٤٤.

(٢) ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، بغداد، ١٩٧٠م: ٥٦-٥٧.

(٣) دراسات نقدية في الأدب العربي: ٢٣٥.

(٤) شعر السموال، تحقيق وشرح عيسى سبابا، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥١م: ٣٠.

(٥) شعر أبي زيد الطائي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي، ساعد الجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م: ٤٢.

(٦) ديوان قيس بن الخطيم، حققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م: ٧١.

(٧) عبد الرحمن شكري ناقدًا شاعرًا: ٢٢١.

(٨) ديوان الأعشى الكبير: ١٥. الرجيم: الملعون، يجنونه: يسترونه في الأرض ويدفنونه.

(٩) ديوان طرفه بن العبد، تقدم وشرح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي بجلب: ٣٥.

أحضان النساء أو التعبير عن مروءته وإنسانيته التي وجد فيها مُتعة تُبرِّرُ له تحمُّلُ أعباء الحياة القاسية، ولولا هذه الأشياء الثلاثة لرحَّبَ بالموت، ولم يعبا به كما قال:

وجدك لم أحفل متى قام عودي  
كُميت متى ما تعل بالماء تزد  
كسيد الغضى، نبهته، المتورد<sup>(١)</sup>

فلولا ثلاث هُنَّ من عيشة الفتى  
فمنهنَّ سبق العاذلات بشرية  
وكري إذا نادى المضاف مُحَبَّبًا

وسارَ طرفه نحو الموت بِخَطَى ثابتة غيرَ خائف، بعدما ((اقتنع رَغَمَ حادثة السنَّ، بأنَّ الموتَ حقيقةً ماثلةً للعيان في كُلِّ لحظة، لقد كان طرفه قريبًا في توجُّهه من الوجوديين الذين أعلنوا عبثية الحياة، تلك الحياة التي لا تستندُ حسب رأيهم إلى أيِّ أساس ماهوي... فالوجودُ عَدَمٌ، والموتُ بذرةٌ كامنةٌ في جسدِ الحيِّ مُنذ ولادته. لقد أدرك الشاعرُ الجاهليُّ الشابُّ أنَّه من العَبَثِ إضاعةُ هذه الفرصةِ الوجيهةِ بعيدًا عن اللذة:

ستعلم إن متنا غداً أينما الصدي  
كقبر غوي في البطالة مُفسد  
صفائح صم من صفيح مُنضد  
وما تُنقص الأيام والدهرُ ينفد

كريم يُروِّي نفسه في حياته  
أرى قبر نَحامٍ بخيلٍ بماله  
تري جثوتين من ثرابٍ عليهما  
أرى العيش كنزًا ناقصًا كُلَّ ليلة

ما أوصى به طرفه من استنزاف كُلِّ هنيهة في ما يعطي للحياة معنى))<sup>(٢)</sup> غير أنَّه لم يخشَ الموتَ ومضى إليه برباطة جأش بعدما أدرك أنَّ الحياةَ زائلةٌ، فأرادَ أن يضعَ حدًّا لحياته العبثية، وما رافقها من ضنك العيش، وما اعترض سبيله من مشاكل جعلته يضيقُ ذرعًا بها، فقال:

وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي  
فدعني أبايرها بما ملكت يدي<sup>(٣)</sup>

ألا أيُّ هذا الزاجري أحضر الوغي  
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

ونجدُ مثلَ هذه الرؤيا التي تقولُ أنَّ المرءَ يحملُ بذورَ فناءه منذ الولادة، وما عليه إلا أن يخضعَ للأمر الواقع، وأن يتجرَّعَ كأسَ الموت، لدى كثيرٍ من شعراء العصر الجاهلي ومنهم السَّمَوَالُ في هذه الأبيات التي حاولَ فيها أن يتعمَّقَ في حقيقةِ الموتِ والحياة في قوله:

فني الرجال ذوو القوى ففنيث  
والموت يطلبنني ولست أفوث  
ويرى فلا يعيا بحيث أبيث  
شيئا يموت فمت حيث حييث  
إن كان ينفغ أنني ساموث<sup>(٤)</sup>

اسلم سلمت ولا سليم على البلى  
كيف السلامة إن أردت سلامة  
وأقيل حيث أرى فلا أخفي له  
ميثا خلقت ولم أكن من قبلها  
وأموث أخرى بعدها ولا عملن

وفعل بعض شعراء الجاهلية مثل ما فعل شعراء مدرسة القبور الإنكليزية، الذين كانوا يعيشون حيث يرقُدُ الموتى، ويقفون في هدأة الليل، أمام القبور، ثم ينظمون ما يدورُ في بالهم من خواطرٍ وهواجسٍ، وكان أصحابُ مدرسة القبور يرون أنَّ القبرَ وما حواه من الأهل والأحباب، كان موضوعًا مُحِبِّبًا لهم، وكان الليلُ موحياً لهم بخواطرَ تدورُ حولَ الموتِ والخلود<sup>(٥)</sup>، فقد وقف الشاعرُ عديُّ بن زيد العبادي عند إحدى المقابر، وسجَّلَ خواطرَهُ الشعريةَ، كما يفعلُ بعضُ الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث، غير أنَّ عديَّ بن زيد لم يذهب بعيدًا بخياله، وبُصُورٍ لنا أدقُّ هواجسه التي انطبعت في ذهنه وهو يرى منظرَ القبور، بل وقفَ عند حدود العبرة والموعظة، وما ينتظرُ الإنسان من مصيرٍ حزين، ورأى في القبور شاهدًا على زوال الحياة، وانطفاء شعلتها، وما تتركُهُ هذه المشاعرُ على نفس الإنسان، من انكسارٍ، ويأسٍ، ورؤية قاتمة للوجود تدعوهُ ألا يفرحَ بالنعيم الذي هو فيه، أو النجاحات التي حقَّقها في حياته. وقد صاغَ عديُّ بن زيد هذه الرؤيا بأسلوب قصصي جميل وظفَّ فيها بعض القصص التاريخي توظيفًا مُوفقًا في التعبير عن نظريته الحزينة المُتَشائمة، فقالَ ذلك على لسان قبور الموتى:

إنه مُوفٍ على قرن زوال  
ولما تأتي به صم الجبال  
يشربون الخمر بالماء الزلال  
أمني دهرهم غير عجال

من رانا فليحدث نفسه  
وخطوب الدهر لا يبقَى لها  
رُب ركب قد أناخوا عندنا  
عمروا دهرًا بعيش حسن

(١) ديوان طرفة بن العبد: ٣٤ .

(٢) الموت من منظور الذات قراءة في جدارية محمود درويش، د. عبد السلام المساوي، مجلة الفكر، العدد (٤)، المجلد (٣٥)، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م: ١٣١ .

(٣) ديوان طرفة: ٣٣ .

(٤) شعر السموال: ٢٩ .

(٥) ينظر: جماعة الديوان، الدكتور يسري محمد سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٧م: ١١٣ .

عَمِرُوا دَهْرًا بِعَيْشٍ حَسَنٍ      أَمْنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عَجَالٍ

ثُمَّ أَضْحُوا أَخْنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ      وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُوْدِي بِالْجَبَالِ<sup>(١)</sup>

وقصّة نظم هذه الأبيات تقول أنّ النعمان بن المنذر - ملك الحيرة - خرج ينتزعه بظهر الحيرة، ومعه عدي بن زيد، فمرا على المقابر من ظهر الحيرة، فقال له - أبيت اللعن - أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال: لا، قال: فإنها تقول<sup>(٢)</sup>:

أَيُّهَا الرُّكْبُ الْمُخْبِتُ      نَ، عَلَى الْأَرْضِ الْمُجْدُونِ

فَكَمَّا أَنَا نَحْنُ كُنَّا      وَكَمَّا نَحْنُ تَكُونُونَ<sup>(٣)</sup>

وتغنى بعض الشعراء الجاهليين بآلامهم، وأشجانهم؛ لعلّ ذلك يخفف من وطأة الألم الذي اجتاحت نفوسهم التي أعباها شبح الموت الذي يطارد نفوسهم بين الحين، والحين، وعمل على إفساد متعة الحياة لديهم، ممّا حدا بالشاعر عدي بن زيد العبادي إلى أن يتمنى ما تمنّاه بعض الرومانسيين المحدثين، أن يعيشوا مثل الأقوام البدائية الجاهلة بحقيقة الحياة، إذ تجري الأيام من حولهم، من دون أن يكتثروا بها، وهم لا يعيذوا بها<sup>(٤)</sup>، فعدي بن زيد يرى أنّ الجهل من لذة الفتى؛ لأنّ الجاهل غير المتعلم، قد تمرّ به أيام جائرة، ويتجرّع مرارتها، ويقارعها مفارعة سلبية من غير أن تترك في نفسه آثاراً عميقة تجعله يحتسب لها، فالجاهل في كثير من الأحيان يرجع كثيراً من الظواهر الحياتية التي تؤذيه، وتعكر صفو حياته، إلى أسباب غيبية، ويرضى بما يقع عليه من غبن وسوء حال، تحت هذه التعليلات الساذجة، أمّا المتعلم فيرجع الأمور إلى أسبابها الحقيقية، وعندما يجد نفسه عاجزاً عن الحلّ، فإنّ ذلك يؤرقه ويُعذّبه في الحياة، ونجد ذلك واضحاً في قول عدي بن زيد:

أَعَاذِلْ إِنَّ الْجَهْلَ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى      وَإِنَّ الْمَنَایَا لِلرَّجَالِ بِمَرَصَدٍ

أَعَاذِلْ مَنْ تُكْتَبُ لَهُ النَّارُ يَلْقَاهَا      كَفَاحًا، وَمَنْ يُكْتَبُ لَهُ الْفَوْزُ يُسَعِدُ

أَعَاذِلْ مَا يُدْرِيكَ إِلَّا تَظَنُّا      إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى الْغَدِ<sup>(٥)</sup>

أمّا امرؤ القيس، فقد استغرب من أمر الناس الذين يتجاهلون ما ينتظرهم من مصير مؤلم، وهم مُنغمسون في الحياة الدنيا، لا همّ لهم سوى إشباع بطونهم من مأكّل وشراب، وينسون أنّ الموت يتربّص بهم سوءاً، فقد تركت هذه الرؤيا الحزن، والتشاؤم في نفس امرئ القيس الذي كان يدرك حقيقة الحياة، وما تؤول إليه، في حين أنّ معظم الناس يجهلون هذه الحقائق، لذلك ينعمون بالحياة في حين أنّ الشاعر ذا الحسّ المرهف يتعذّب لذلك، فقال:

أَرَانَا مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ\*      وَنُسَحَّرُ\* بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

عَصَافِيرٌ، وَذِبَّانٌ\*\*\*، وَدُودٌ      وَأَجْرًا مِنْ مُجْلَحَةِ الذَّنَابِ

فبعض اللوم عاذلتني فإني      ستكفيني التجارب وانتسابي

إلى عرق الثرى وشجت غروقي      وهذا الموت يسلبني شبابي

ونفسي سوف يسلبني وجرمي      فيلحقني وشيكا بالثراب<sup>(٦)</sup>

ونجد حالة القلق واضحة لدى الشاعر لبيد بن ربيعة العامري، وهو يتأمل الحياة، والموت. ويمكننا أن نلمس اللوعة التي تركتها هذه المشاعر في نفسه، وهو يرى أنّ الموت كُتِبَ على الإنسان، وهو شبح يؤرقه في حياته؛ لأنّه يشعر بأنّه - أي الموت - قريب منه، ويمكن أن يُجهز عليه في أيّ وقت، وما زاد من ألمه وحزنه أنّ هذا الموت لا أحد يدرك ماهيته، ويعرف أسرارته، حتّى الساحرات اللواتي شيع عنهنّ معرفة أسرار الغيب، وفعل الخوارق، فإنهنّ يقفّن عاجزات أمام الموت، فقال:

فَلَا تَبْعِدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدٌ      عَلَيْكَ فَدَانٍ\* لِلطَّلُوعِ وَطَالِغِ

أَعَاذِلْ مَا يُدْرِيكَ إِلَّا تَظَنُّا\*\*      إِذَا ارْتَحَلَ الْفَتَيَانُ مَنْ هُوَ رَاجِعُ؟

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٢ - ٨٣.

(٢) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت: ٥١٤ / ٢.

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٨٠.

(٤) ينظر: الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣: ٨٣.

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٠٣.

\* أي مُسرّعين للموت المنيب.

\*\* نُسَحَّرُ: نُلْهِى وَنُخَلِّعُ.

\*\*\* عصافير وذبان: أي مخلوقات ضعيفة، ومجلحة الذناب: وهي المصممة على شيء التي لا ترجع عما تريد.

(٦) ديوان امرئ القيس: ٤٣.

(\*) الداني: القريب، الطالع سيرا عن الداني للطلوع.

وأي كريم لم تُصِبْهُ القوارعُ  
الآن أخذان الشَّبابِ الرِّعارعُ  
ولا زاجرات الطير (\*\*\*\*) ما الله صانعُ  
يذوقُ المنايا، أو متى الغيثُ واقعُ؟<sup>(١)</sup>

أتجرعُ ممّا أحدث الدهرُ بالفتى  
تُبْكي (\*\*\*). على إثر الشبابِ الذي مضى  
لعمرك ما تدري الضوَّابُ بالحصى  
سَلُوهُنَّ إن كَذَبْتُمُونِي متى الفتى

وصاغ بعض الشعراء تأملاتهم في الحياة، والموت، على شكل أقصوصة شعرية، بعدما أطلقوا العنان لخيالهم؛ ليصوّروا لنا ما يؤول إليه مصير الإنسان بعد الموت، فصوّر لنا أميئة بن أبي الصلت عاقبة المجرمين، وكيف يُساقون إلى العقاب الذي ينتظرهم وهم غرّة مُقَيَّدُونَ بالسلاسل، ويُعَذَّبُونَ بالضرب على رؤوسهم بالمقامع، ثم يُصلّون بالنار ويُطلقون الأصوات التي تدلّ على ما يلقونه من شدّة العذاب الذي وقع عليهم، وهي صورة مُرعبة رسمها الشاعر لما يعقب موت الخلق، وقد استقى الشاعر هذه المعاني والأخيلة بما كان سائداً في عصره من مُعتقدات دينية، ثم أضفى عليها شيئاً من خياله، فقال:

وذي دُنيا يصيرُ إلى زوالٍ  
سوى الباقي المُقدَّسِ ذي الجلالِ  
إلى ذات المقامع والنكالِ  
وعجّوا في سلاسلها الطوالِ  
وكلّهم بحرّ النارِ صالٍ<sup>(٢)</sup>

فكلّ مُعَمَّرٍ لا بدّ يومًا  
ويبقى بعد جدّته ويبلّى  
وسيق المجرمون وهم غرّة  
فنادوا ويلنا ويلاً طويلاً  
فليسوا ميّتين فيستريحوا

وهذه الأبيات الشعرية، تُذكّرنا بما نظمه بعض الشعراء الرومانسيين المُحدثين من قصائد ذات طابع قصصي، يحكي لنا ما تضطرب به نفس الشاعر الرومانسي، من قلق، واضطراب في حياته، بحيث يذهب به الخيال إلى أن يصوّر لنا مشهداً من حياة الآخرة، وهي في حقيقة أمرها تُصوّر ما تترخّر به حياته من صراعات، فضلاً على ما تسربّ إلى ذهنه من قصص تُصوّر ما ينتظر الإنسان في آخرته من حساب، وعقاب. وقد صاغ ذلك بأسلوب خيالي بعيد، وفي ذلك يقول الشاعر (عبد الرحمن شكري) مُصوِّراً يوم البعث والنشور:

عَدَا كَأَن مَرَّ بِي الْآبَاءُ وَالْقِدَمُ  
أَبْوَاقِهِمْ، وَتَنَادَتْ تِلْكَمُ الرَّمَمُ  
هُوجَاءُ كَاللَّيْلِ حَمَّ لَجْهَ عَرَمُ  
وَتِلْكَ تُعَوِّزُهَا الْأَصْدَاغُ وَاللِّمَمُ  
وصاحبُ الرُّأْسِ يَبْكِيهِ وَيَخْتَصِمُ<sup>(٣)</sup>

مَرَّتْ عَلَيَّ قُرُونٌ لَسْتُ أَحْفَظُهَا  
حَتَّى بُعِثْتُ عَلَى نَفْخِ الْمَلَائِكِ فِي  
وَقَامَ حَوْلِي مِنَ الْأَمْوَاتِ زَعْفَةٌ  
فَذَاكَ يَبْحَثُ عَنْ عَيْنٍ لَهُ فَقِدْتُ  
وَرُبَّ غَاصِبٍ رَأْسٍ لَيْسَ صَاحِبَةً

ولابدّ من القول أنّ قصيدة (عبد الرحمن شكري)، موعظة في الخيال، وجاء بهذه الصور الخيالية التي تحكي قلقه العميق في حياته المضطربة، وما يشوبها من صراعات محتدمة بين البشر. أمّا أميئة بن أبي الصلت، فجاء خياله في حدود ما استقرّ في ذهنه من مُعتقدات دينية كانت معروفة في عصره، ثم أضفى عليها شيئاً من خياله، لكنّ ذلك في الأحوال كلها يُعطي صورة عن قلق الشاعر في حياته، وتوجُّسه من الموت، ممّا دعاة إلى أن يرسم هذه الصورة المُرعبة للحياة الأخرى.

ونظم عدي بن زيد قصيدة في تأمل الحياة، وخرج من هذا التأمل بالخيبة، والانكسار النفسي، بعدما اتّضح له أنّ الحياة زائلة، ولم ينفع الإنسان ما حصل عليه من مُلك وجاه في الحياة، وما أحرزّه فيها من رُقّي، وساق لذلك بعض القصص التاريخي، ممّا حلّ بأشهر ملوك عصره، وهم ملوك الفرس والروم الذين كان العالم آنذاك يدين لهم بالولاء، ولا يُنازعهم فيه أحد، فخرج الشاعر إلى نتيجة مفادها أنّ الناس جميعاً ينتظرهم المصير نفسه الذي لم يستثن الملوك الأكاسرة والقيصرة، وملوك الحضر، والخورنق، فالكلّ يعصف بهم الدهر، وينثر سنوات عمرهم، كما تنثر ريح الخريف أوراق الشجر، فقال عدي:

لَكَ فاعلم لأيّ حالٍ تصيرُ

أرواحُ مُودّع، أم بكـوور؟

ثم يقول:

ـ ر، أأنت المُبرراً الموفور؟  
ـ ام، بل أنت جاهلٌ مغرور؟  
ـ ذا عليه من أن يضام خفير؟  
ـ وان، أم أين قلبه سابور؟

أيّها الشامتُ المُعيرُ بالدهـ  
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ  
من رأيت المنون خلدن، أم من  
أين كسرى كسرى الملوك أنوشـ

(\*) تبيكي، أي العاذلة: الأخدان: الأخوان: الرعارع: جمع رعرع وهو الشاب الحسن القوام.

(\*\*\*\*) زاجرات الطير: إشارة إلى عادة العرب في زجر الطير للتنبؤ بالآتي.

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقّده له: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢: ١٧١-١٧٢.

(٢) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره: ٣٨٥.

(٣) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ١٥٤.



وَأَنْ، أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ  
وَم، لَمْ يَنْقُ مِنْهُمْ مَذْكَورُ  
لَهُ تُجَبَّى إِلَيْهِ، وَالْخَابُورُ  
مُتْلُكَ مِنْهُ، فَبَابُهُ مَهْجُورُ

مَّةً وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقَبُورُ  
فَالْتَوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالْذُبُورُ<sup>(١)</sup>

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَتُوشَرُ  
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْمُلُوكِ مُلُوكِ الرُّ  
وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ، وَإِذْ بَجَا  
لَمْ يَهْبُهُ رَيْبُ الْمَنُونِ، فَبَادَ الْ  
ثُمَّ يُنْهِي قَصِيدَتَهُ بِقَوْلِهِ:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِ  
ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ جَفَّ

#### شعر الطبيعة

ونجد بعض التأمّلات البسيطة التي حاول من خلالها الشاعر الجاهلي أن يخلع شيئاً من مشاعره، وأحاسيسه على الطبيعة، ويرى في الطبيعة ما يُعَبِّرُ عَمَّا يَجِيشُ فِي خَاطِرِهِ مِنْ هَوَاجِسٍ وَعَوَاطِفٍ، فَالشاعرُ لَبِيدُ بن ربيعة العامري رأى في لمعان الشهاب، وانطفائه بما يشبه حياة الإنسان الذي يرى نور الحياة في ولادته، ثم ينطفئ هذا النور في وفاته، فالشهاب يُعَبِّرُ عَنِ الْحَقِيقَةِ الْمُرَّةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا مَأْسَاءُ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْؤُهُ  
يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ<sup>(٢)</sup>

ونرى الصورة التي استقاها الشاعر الجاهلي من الطبيعة، عن حياة الإنسان التي تنتهي إلى الموت، أكثر وضوحاً في شعر حسان السعدي، وهو يرى ما يحلُّ بِالْإِنْسَانِ مِنْ نِهَائِيَّةٍ مُحْزَنَةٍ مَعَ تَقَادُمِ الْأَيَّامِ، تَتِمَثَّلُ بِالْقَمَرِ الَّذِي يَهْلُ صَغِيرًا، ثُمَّ يَكْبُرُ وَيَزْدَادُ نُورَهُ إِشْعَاعًا حَتَّى يَبْلُغَ التَّمَامَ، ثُمَّ يَبْدَأُ بِالتَّضَاوُلِ مَعَ الْأَيَّامِ، فَيَخْبُو ضَوْؤُهُ مَعَ الْأَيَّامِ حَتَّى يَزُولَ، وَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّشْبِيهِ يُسَمِّيهِ الْبَلَاغِيُّونَ بِالتَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ، إِذْ يَكُونُ وَجْهُ الشَّيْءِ مُنْتَزَعًا مِنْ أَشْيَاءٍ مُتَعَدَّةٍ<sup>(٣)</sup>، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ:

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ فَإِنِّي  
يَهْلُ صَغِيرًا، ثُمَّ يَعْظُمُ ضَوْؤُهُ  
تَقَارِبُ يَخْبُو ضَوْؤُهُ وَشِعَاعُهُ  
أَرَى قَمَرَ اللَّيْلِ الْمُعَذَّبِ كَالْفَتَى  
وَصُورَتُهُ حَتَّى إِذَا مَا هُوَ اسْتَوَى  
وَيَمْصُخُ\* حَتَّى يَسْتَسِرَّ فَمَا يُرَى<sup>(٤)</sup>

أما كعب بن زهير، فقد رأى ما رآه غيره، من شعراء العصر الجاهلي، بأن المرء، والمال ينموان إلا أنهما يفنيان مع مرور الأيام، وتقدم الزمن، ورأى هذه الصورة، قد تجسدت بالغصن الذي يبدأ ناعمًا جذابًا إلى أن يصفر ورقه، ويتساقط، ويدبّل، ويموت، وهذا ما يُذَكِّرُنَا بِأَخِيلَةَ الرُّومَانِيِّينَ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يَرُونَ تَسَاقُطَ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ، فِي فَصْلِ الْخَرِيفِ، مَا يَشْبَهُ تَسَاقُطَ سَنَوَاتِ عُمُرِ الْإِنْسَانِ، فِي أَثْنَاءِ رَحْلَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، لِذَلِكَ كَانَ هَذَا الْمَنْظَرُ يَثِيرُ الْحَزْنَ فِي نَفْسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَرُونَ فِيهِ ذُبُولَ الْحَيَاةِ<sup>(٥)</sup>، وَفِي ذَلِكَ قَالَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ:

وَالْمَرْءُ وَالْمَالُ يُنْهَى ثُمَّ يَذْهَبُ  
كَالْغَصَنِ بَيْنَا تَرَاهُ نَاعِمًا هَدْبًا  
وَرُبَّمَا اقْتَرَبَ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ الَّذِي سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهُ:

ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ جَفَّ  
فَالْتَوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالْذُبُورُ<sup>(٦)</sup>

وتكررت مثل هذه الصورة المُسْتَقاة مِنَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ كَيْفَ تَمْضِي حَيَاةُ الْإِنْسَانِ نَحْوِ الْأَفُولِ، لَدَى كَثِيرٍ مِنْ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْهُمْ حَاتِمُ الطَّائِي الَّذِي قَالَ:

عَرِثٌ عَنِ الشَّبَابِ وَكُنْتُ غَضًّا  
كَمَا يَعْرِى عَنِ الْوَرَقِ الْقَضِيبُ<sup>(٨)</sup>

وهكذا وظّف الشاعر الجاهلي عناصر الطبيعة؛ للتعبير عن حالته النفسية، فهذا الشاعر بشر بن أبي خازم مثل طرفه بن العبد يدعو الإنسان إلى أن يستمتع بالحياة؛ لأن الشباب مثل السحاب الذي تحمله الرياح، فإذا ولى فسوف لن يعود، فقال:

\* الإثمة: النعمة، الدبور: الريح التي تقابل الصبا .

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٤ - ٨٨ .

(٢) ديوان لبّيد: ١٦٩ .

(٣) البلاغة فنونها وألفاظها، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط ١٠، الأردن: ٥٨ .

\* يَمْصُخُ: يذهب، ويستسر: أي أنّ القمر في آخر لياليه يخفي يومين، ومن ثمّ يتجدّد طلوعه بداية الشهر .

(٤) الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، د.ت: ٤٧٨ .

(٥) ينظر: الشعر العربي في المهجر، د. إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م: ١٠٧ .

(٦) ديوان كعب بن زهير رواية السُّكْرِيِّ، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجمع، بيروت، ١٩٦٨م: ١٦٦ .

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٩٠ .

(٨) حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقديماء، العبد لكاتب الزوزني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المعيد، مطبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م: ٧ .

قليلاً والشباب سحاب ریح إذا ولى، فليس له ارتجاع<sup>(١)</sup>

وقف الشاعر الجاهلي أمام الليل، كما يقف الشاعر الرومانسي في العصر الحديث، فوجد فيه خير مُعبر عن حالته النفسية الحزينة، التي تلذت بسحب الهموم والأحزان، وزادها حزناً وسواداً ليلته الحالكة السوداء، ((فهذه الصورة التي رسمها الشاعر لليل ليست مجرد صورة حرفية أمينة لليل، لكنها صورة لليل الشاعر الطويل الملىء بالهموم، إن ضخامة الهموم التي يُعانيها الشاعر هي التي حولت الليل فجعلته كموج البحر الهادر، ومن خلال صورة الجمل الذي تمطى بصلبه، وأردف أعجازه وناء بكليلة نحس بنقل الهموم على نفسه، وكيف أنها انتشرت وامتدت في كل زاوية من زوايا نفسه))<sup>(٢)</sup>، وفي ذلك يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فقلت له لما تمطى بجوزِه

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

ووجد الشاعر الجاهلي في البرق ما يثير وجدانه وأحزانه، ويتخذ من المطر ((ذريعة للذكرى أو يُعتبر سبباً للأرق والهموم... فهو يتخيل في السحاب والبرق مأتماً يبكي فيه عليه))<sup>(٣)</sup>، فقال عدي بن زيد:

أرقت لمكفهر بات فيه

تلوح المشرفة في ذراه

كان مأتماً باتت عليه

يلألن الأكف على عدي

الخير والشر

أما الثنائية الثانية، التي شغل فيها الشاعر الجاهلي، فهي ثنائية الخير والشر، التي كانت هي الأخرى، مصدر قلقه واضطرابه في هذه الحياة، وحاول أن يتعمق بهذه الظاهرة، وأن يعرف أسرارها، ويحل طلاسمها، غير أنه وقف عند ظواهر الأشياء، ولم يغص في الأعماق، وجاءت رؤيته بسيطة، ساذجة، مما جعله يُعبر عن ألمه، وخيبته، وهو يدفع الثمن باهظاً، من جراء اضطراع الخير والشر في حياته من دون أن يجد تعليلاً منطقيّاً يشفي ظمأه. ويمكن أن نلمس ما قلناه في شعر المُتنبِّ العبد الذي يرى أن الشر يلاحقه، على الرغم من أنه ينبغي الخير، ولا يعرف سبب ذلك، فقال:

وما أدري إذا يممث أمراً

أأخير الذي أنا أبتغيه

ويُعبّر الشاعر سويد بن عامر المصطلي، عما يضطرب في نفسه، من مشاعر القلق والخوف، وعدم الأمان مما ينتظره في دنياه، وما تُخبئه له الأيام مما لا يُحمد عقباه نتيجة اضطراع الخير والشر، فقال:

لا تأمن وإن أمسيت في حرم

فالخير والشر مقرونان في قرن

ويرى النابغة الذبياني، أن الحياة تتقلب بين الخير والشر، ولكل منهما وقتٌ مُحدّد، ثم يمضي، فقال:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده

ولا يحسبون الشر لا شر بعده

وعبر الشاعر الجاهلي عن ثنائية الخير والشر، من خلال رموز استقاها من بيئته، فقد رأى الجاهليون في بعض أنواع الطيور، ما يبعث الشؤم في حياتهم، وكانوا يتطهرون من رؤيتها؛ لأنهم يعتقدون أنها تجلب إليهم الشر وتذهب الخير، وفي مقدّمة هذه الحيوانات الغراب، ((فقد كره العرب الغراب، ونفروا منه، وتشاءوا به، وليس في الأرض، بارح، ولا نطيخ، ولا قعيد، وأعضب، ولا شيء مما يتشاءمون به، إلا والغراب عندهم أنكذ منه، وأبشع خياراً، وأشنع أخباراً، لعل ذلك راجع إلى لونه، وإلى عمله، وإلى اسمه))<sup>(٤)</sup>، وتشاء بعض الشعراء من الغراب؛ لأنهم يعتقدون أنه يُنذر بفراق الأحباب، كيف لا، واشتُقت من اسمه، الغربة، والاعتراب<sup>(٥)</sup>، في حين

(١) ديوان بشر بن أبي خازم: ١١٢.

(٢) التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط ٤، ١٩٨١م: ٩٠.

(٣) ديوان امرئ القيس: ١١٧.

(٤) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى جباروك، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م: ١٨٧. المكفر: السحاب المتوالي المتراكب، شيب: فيها سواد وبياض، المشرفة: سيوف تنسب إلى قرى اسمها مشارف دمشق في أرض العرب، الدخدار: الثوب المصون أعجمي معرب أصلها تحت دار، يلائن: يجرى.

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٣٧.

(٦) ديوان شعر المتنبِّ العبد، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصبري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م: ٢١٢-

٢١٣.

(٧) كتاب العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: يوسف هبود، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م: ٢٣٩/٥.

(٨) ديوان النابغة الذبياني، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذخائر العرب ٥٢، دار المعارف، ط ٣، ١٩٩٠م: ٤٨.

(٩) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، مطبعة الرسالة، مصر، د. ت: ١٢٠.

(١٠) ينظر: كتاب الحيوان: ٤٤٣.

الغراب؛ لأنهم يعتقدون أنه يُنذرُ بفراق الأحباب، كيف لا، واشتُفقت من اسمه، الغربة، والاعتراب<sup>(١)</sup>، في حين رأى أحد الباحثين سبب تطير الناس من الغراب، واليوم؛ لأنهم ((قرنوا الفراق والموت بالغراب، واليوم، نتيجة لما تتسم به هذه الحيوانات من أشكال مخيفة، وما تبعثه من أصوات قبيحة، تُثيرُ الشؤم في نفس الإنسان، علاوة على ارتيادها الأماكن المهجورة، التي تبعث على الخوف، والفرع، والرعب، كل هذه الأسباب، جعلت النفوس، تنفر منها، وتقرنها بالشؤم، والشر، وترى فيها رمزاً للفراق والموت))<sup>(٢)</sup>.

وهكذا اقترن الشر بروية الغراب، مما جعل ذلك الشاعر الزبيري يُخاطب الغراب، ويقرنه بالبين، ويجد في نعيه نذير شؤم، غير أن الشاعر يحاول أن يخفف من وقع ذلك على نفسه، بعد أن يجد مخرجاً لذلك، بأن الخير والشر لكل منهما وقت وينقضي، وعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة، وأن يهيئ نفسه لذلك، فقال:

يا غراب البين أسمعته فقل  
إن للخير وللشر مدى  
كل بؤس ونعيم زائل  
وبنات الدهر يلعبن بكل<sup>(٣)</sup>

ويرجع بعض الباحثين، خوف الإنسان الجاهلي، من الغراب، ونعته بغراب البين؛ ((ذلك لأنه ينتمي أصلاً إلى عالم السحر، لقد استُخدم في عالم الكهانة... كما ظل له باستمرار، ارتباط بعالم السحر، في النسيب، كما اعتقد. وتطور مفهومه مؤخراً بالطبع، فأصبح مجرد رمز للباس))<sup>(٤)</sup>.

ويمكن أن نلمس مشاعر الخوف، والشؤم أكثر وضوحاً في شعر النابغة الذبياني، وهو الذي رأى في البوارح، والغراب، نذيري شؤم، برويتهما يقع الفراق بينه وبين الأحبة؛ لأنهما لا يسوقان إلا مثل هذه الأخبار الحزينة، فقال:

زعم الغراب بأن رخلتنا غداً  
أزف الترحل غير أن ركبنا  
لا مرحباً بغد، ولا أهلاً به  
إن كان تفريق الأحبة في غد<sup>(٥)</sup>

وذهب الشاعر عنترة إلى ما ذهب إليه النابغة، فرأى في الغراب وصوته، رمزاً للفراق بينه وبين حبيبته، وعبر عن خوفه منه، بأن رسم له صورة تبعث الاشمزاز، وكذلك عمل على منعه أن يُفرخ، ويتكاثر، حتى يبقى وحيداً يندب حظاً العاثر، كما فعل بالشاعر، فتركه وحيداً يتلوى تحت أوجاع الفراق والسهر، فقال:

ظعن الذين فراقهم أتوقع  
حرق الجناح كأن يحيي رأسه  
فجزرت له ألا يفرخ عشته  
إن الذين نعبت لي بفراقهم  
وجرى بينهم الغراب الأبقع  
جلمان بالأخبار هاش مولع  
أبداً ويصبح واحداً يتفجع  
قد أسهروا ليلي التمام فأوجعوا<sup>(٦)</sup>

واتخذ المرقش الأكبر من صوت اليوم، رمزاً للشر، ومبعثاً للتشاوم، بعدما سمع صوت اليوم يتردد في الأطلال الدوارس، التي خلت من أهلها، فوجد في هذه الديار منزلاً، ضاق به ذرعاً، ولم يستطع المبيت فيه؛ لشدة خوفه، وروعته، وجاء بصور جميلة، صور فيها نفسه، وقد غلبت عليه هواجس الخوف، فتركته صامتاً، باهتاً، لا يدري ما يفعل، يتصوره الناظر إليه كأنه أنس في المكان، مستمتع به، فقال:

أمن آل أسماء الطلول الدوارس  
ذكرت بها أسماء لو أن وليها  
يخط فيها الطير، قفر بسايس  
قريب ولكن حبستني الحوايس

إلى أن يقول:

وتسمع ترقأء من اليوم حولنا  
كما ضربت بعد الهدوء النوايس<sup>(٧)</sup>

#### الشباب والمشياب

(١) ينظر: كتاب الحيوان: ٤٤٣.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت: ٣٢٠.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م: ١٤٣/٣.

(٤) جهود استشرافية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم، ريناتا ياكوبي نموذجاً، د. عبد القادر الرباعي، دار جرير، ط١، د.ت: ١٤٦.

(٥) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩.

(٦) أشعار الشعراء السنة الجاهليين: ١٤٣/٢.

(٧) ديوان المرقشيين، تحقيق: كارين صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٥٥.

من ذكريات جميلة، وتحلُّ أيام المشيب، وما يفتنُّ بها من ذبول الحياة، وأفولها، وإنَّ مثل هذه المشاعر تتركُّ في نفس الشاعر لوعةً، وحُزنًا، ومنهم زهير بن أبي سلمى، وهو يُعبِّرُ عن الخيبة التي ألمَّت به حين حلَّ به المشيب، ورحل عنه الشباب، وحُرم من لذاته، وقد عبَّرَ عن ذلك، بكنائيات، واستعارات، وتشبيهات؛ لأنَّ هذه الأساليب البلاغيَّة هي الكفيلةُ في ((إظهار ما يجولُ في نفس الإنسان، من عواطف وإحساسات، وخيالات وغيرها))<sup>(١)</sup>، فقال زهير بن أبي سلمى:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ      وَغَرِيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ  
وَأَقْصَرَ عَمَّا تَعَلَّمِينَ وَسُدَّدَتْ      عَلَيَّ سَوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعَادِلُهُ  
وَقَالَ الْعَذَارَى: إِنَّمَا أَنْتَ عَمَّنَا      وَكَانَ الشَّبَابُ كَالْخَلِيطِ نَرَائِلُهُ  
فَأَصْبَحْنَا مَا يَعْرِفُنَا إِلَّا خَلِيقَتِي      وَالْأَسْوَادَ الرَّأْسِ وَالشَّيْبَ شَامِلُهُ<sup>(٢)</sup>

وهكذا أصيب زهير بما يُشعره بأنَّه أصبحَ هامشيًّا في هذه الحياة، وليس له سوى انتظار الموت، بعدما هجرته النساء، ولم يُعَدِّنْ يكثرثنَّ به، فحُرمَ من واحدةٍ من أهمِّ المتع في الحياة، وقد عبَّرَ عديُّ بن زيد، عن المشاعر نفسها، نحو الشيب، ولكن بأسلوبٍ آخر؛ إذ رأى في الشيب ضيقاً بغيضاً، ثَقِيلَ الظِّلِّ، يُعَكِّرُ حياةَ الإنسان، ويذهبُ كلَّ ما فيها من لذةٍ ونعيم، ليقبلها إلى همومٍ وآلام، وإنَّ هذا الشيب واقعٌ، ولا مفرَّ منه، فقال:

نَزَلَ الْمَشْيِبُ بَوْفِدِهِ لَا مَرْحَبًا      وَرَأَى الشَّبَابَ مَكَانَهُ فَتَجَنَّبَا  
ضَيْفٌ بَغِيضٌ لَا أَرَى لِي عُصْرَةَ      مِنْهُ هَرَبْتُ فَلَمْ أَجِدْ لِي مَهْرَبَا  
بُدِّلْتُ بِالْعَيْشِ اللَّذِيزِ وَنِعْمَةٍ الـ      غُفْرَيْنِ هَمًّا شَاهِدًا، وَمُغْيَبًا<sup>(٣)</sup>

وهذه الأبيات تُذكِّرُنَا بما قاله الشاعر عبد الرحمن شكري، حين وقف أمام المقبرة، ليُسجِّلَ خواطره، في تلك الليلة المقمرة؛ فقد رأى ضوء القمر يسطعُ على القبور، فبدى له هذا الضوء، كضوء البرق، الذي يبعث الرعب والخوف في نفس الإنسان، أو كيباض الشيب حين يظهر على الذوائب، فيبعثُ الخوف في الإنسان؛ لأنَّه يُذكِّره بالموت، فهنا أراد أن يقول أن ضوء القمر جميلٌ، ولكنَّه حين يسطعُ على القبور، يبعثُ الحزن والخوف، وصحيحٌ أنَّه ضوءٌ ونورٌ، وبياضٌ، ولكن ليس كلُّ شيءٍ أبيضٌ تعشقه النفس، يبعثُ السرور، فالبرقُ أبيضٌ، لكنَّه يخطفُ الأبصار، ويبعثُ الرعب، والشيب أبيضٌ، غير أنَّه ثَقِيلٌ على النفس، ويُفزعُ الإنسان؛ لأنَّه رمزٌ للموت، فقال عبد الرحمن شكري:

إِنِّي رَأَيْتُ بَيَاضَ ضَوْئِكَ مَوْهِنًا      فَوْقَ الْقُبُورِ كَعَارِضٍ يَتَهَلَّلُ  
فَفَزَعْتُ مِنْ ذَاكَ الْبَيَاضِ كَأَنَّهُ      لَوْنُ الْمَشْيِبِ عَلَى الذَّوَائِبِ يَثْقُلُ<sup>(٤)</sup>

ونلمسُ مشاعرَ من نوع آخر يُظهرها الشاعر الأعشى قلقاً يائساً من حياته، ثمَّ مستسلماً لما تُقرِّره الأقدار بحقه، بعدما وجد نفسه عاجزاً عن مواجهة قدره، وغير قادرٍ على إصلاح ما أفسده الدهر، فقد وجد نفسه لعبة بيدِ القدر يُسيِّرُها كما شاء من الشباب إلى المشيب، ومن الغنى إلى الفقر، فقال:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرْمَدَا      وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا  
وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا      تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خَلَّةَ مَهْدَا  
وَلَكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَاتِرٌ      إِذَا أَصْلَحْتَ كَفَّايَ عَادَ فَأَفْسَدَا  
شَبَابٌ، وَشَيْبٌ، وَافْتِقَارٌ، وَثُرُوةٌ      فَلَيْلَهُ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا<sup>(٥)</sup>

وعلى العكس من هذه القصيدة، نجدُ الأعشى ((يرسمُ ملامحَ مواجهةٍ مأساةٍ الشيب، من خلال ضربٍ من التمرد، الراضٍ للاستسلام للواقع المفروض، والمنشعب بما كان من عنفوان الشباب وقوته))<sup>(٦)</sup>، فقال:

وَأَرَى الْعَوَانِيَّ حِينَ شَبْتُ هَجَرْنَنِي      أَنْ لَا أَكُونُ لَهْنٍ مِثْلِي أَمْرَدَا  
إِنْ الْعَوَانِيَّ لَا يُوَاصِلُنْ أَمْرًا      فَقَدْ الشَّبَابَ وَقَدْ يَصِلُنْ الْأَمْرَدَا  
بَلْ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعُودُنْ نَاشئًا      مِثْلِي زَمَيْنَ أَحْلَ بَرْقَةً أَنْقَدَا<sup>(٧)</sup>

(١) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣: ١١٩.

(٢) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ١٠١-١٠٢.

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١١٣. العصرة: المنحاة والملحأ.

(٤) ديوان لآلي الأنكار، عبد الرحمن شكري، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م: ١٤٥/٢.

(٥) ديوان الأعشى الكبير: ١٣٥.

(٦) دراسات نقدية في الأدب العرب: ٦٣.

(٧) ديوان الأعشى الكبير: ٢٢٧.

ونجدُ مثلَ هذه المشاعر، التي ترى في الشيب شبحاً يلاحقُ الإنسان، عند علقمة الفحل، وذلك في قصيدته الشهيرة:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طُرُوبٌ      بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبٌ<sup>(١)</sup>  
وَصَوَّرَ الشَّاعِرُ النَّمْرُ بَنْ تَوَلَّبَ مَا يَفْعَلُهُ الْمَشِيبُ بِجِسْمِ الْإِنْسَانِ بِحَيْثُ أَنَّ الشَّاعِرَ أَنْكَرَ نَفْسَهُ، حِينَ رَأَى مَا  
طَرَأَ عَلَى جِسْمِهِ مِنْ هُزَالٍ وَضَعْفٍ، فَقَالَ:  
لَعَمْرِي لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِي وَرَأَيْتِي      مَعَ الشَّيْبِ أَبْدَالِي الَّتِي أَتَّبَدَّلُ  
فَضُولَ أَرَاهَا فِي أَدِيمِي بَعْدَمَا      يَكُونُ كَفَافُ اللَّحْمِ، أَوْ هُوَ أَفْضَلُ<sup>(٢)</sup>  
وعاتبَ النابغة الذبيانيَّ المشيب، وهو يُجهِزُ على أَيَّامِ الصبا، ويُحيلُ أَيَّامَ الشَّاعِرِ أَرْضًا يَبَابًا لَا مَعْنَى لَهَا،  
فَقَالَ:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا      وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْخُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ؟<sup>(٣)</sup>  
وخيرُ من عَيَّرَ عن مشاعره نحو المشيب، هو الشَّاعِرُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَشِيبَ عَلَامَةً مِنْ عِلَامَاتِ  
أَفْوَلِ الْحَيَاةِ، وَوَجَدَ أَيَّامَ الشَّبَابِ الْجَمِيلَةَ تُطَوِّى بِسُرْعَةٍ، فَيَعْقِبُهَا الْمَشِيبُ، مِمَّا تَرَكَ ذَلِكَ لَوْعَةً فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ،  
وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ:  
وَأَرَى سَوَادَ الرَّأْسِ يَنْقُصُهُ الْبَلَى      وَالشَّيْبُ عَنْ طَوْلِ الْحَيَاةِ يَزِيدُ  
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ لَوْ أَنَّهُ      كَانَ الْبُكَاءُ بِهِ عَلَيَّ يَعُودُ  
لَيْسَ الشَّبَابُ - وَإِنْ جَزَعْتَ - بِرَاجِعٍ ۖ      أَبَدًا، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مُعِيدُ<sup>(٤)</sup>

### الرومانسية وتجلياتها الفنية

#### الموضوعات:

في هذا الضرب من الموضوعات، نأى الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ، عَنْ تِلْكَ الْوَاقِعِيَّةِ الصَّارِخَةِ فِي شَعْرِهِ؛ إِذْ  
انصَبَّتْ اهْتِمَامَاتُهُ، عَلَى تَنَاوُلِ مَوْضُوعَاتٍ، تُعْنَى بِتَصْوِيرِ الْمَشَاعِرِ، وَالْعَوَاطِفِ، وَمَا تَضَطَّرَّبُ فِيهِ نَفْسُهُ مِنْ  
مَشَاعِرِ الْقَلْقِ، وَالْخَوْفِ، وَمَا جَاشَ فِيهَا مِنْ أَحْزَانٍ، وَتَشَاوُجٍ، وَيَأْسٍ، وَهُوَ يَقْطَعُ رَحْلَةَ الْحَيَاةِ الْمُضْنِيَّةِ، بِمَا فِيهَا مِنْ  
وَحْشَةٍ، وَغُرْبَةٍ، وَمَا قَاسَا فِيهَا، مِنْ مَتَاعِبٍ وَمُعَانَاةٍ، فَقَدْ تَأَمَّلَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ هَذِهِ الْحَيَاةَ، وَحَاولَ أَنْ يَسْتَقِرِّي  
مَا هَيْتَهَا، وَيَعْرِفَ أَسْرَارَهَا، غَيْرَ أَنَّهُ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ، وَرَجَعَ يَائِسًا، مُسْتَسْلِمًا، لِقَدَرِهِ، بَعْدَمَا ظَلَّتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ يَلْفَهَا  
الْغَمُوضُ، وَلَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِيقَتِهَا، إِلَّا النِّزْرَ الْقَلِيلَ. تَنَاوَلَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ مَوْضُوعَاتِ النَفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْحَيَاةِ،  
وَالطَّبِيعَةِ، مِنْ خِلَالِ بَعْضِ الثَّنَائِيَّاتِ، مِثْلَ ثَنَائِيَّةِ الْحَيَاةِ، وَالْمَوْتِ، الَّتِي شَغَلَتْ رَقْعَةً وَاسِعَةً مِنْ شَعْرِ هَؤُلَاءِ  
الشُّعْرَاءِ، الَّذِينَ حَاولُوا التَّعَمُّقَ فِي مَوْضُوعِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَأَنْ يُدْرِكُوا أَسْرَارَهَا، لَكِنْ تَأَمَّلَاتِهِمْ لَمْ تَكُنْ عَمِيقَةً،  
بَلْ كَانَتْ رُؤْيًى بَسِيطَةً، إِذْ أَرْجَعُوا كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ، إِلَى أَسْبَابٍ غَيْرِ حَقِيقِيَّةٍ، فَقَدْ صَبَّوْا جَامَ غَضَبِهِمْ عَلَى  
الدَّهْرِ، وَالْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ، وَالْقَدَرِ، وَرَأَوْا فِيهَا سَبَبًا لِمُعَانَاتِهِمْ، وَهِيَ الَّتِي جَرَّعَتْهُمْ كُلَّ الْمَصَائِبِ فِي حَيَاتِهِمْ، فِي حِينَ  
أَنَّ الدَّهْرَ أَوْ الزَّمْنَ، وَعَاءٌ تَقَعُ فِيهِ الْأَحْدَاثُ، فَهُوَ لَا يَحْزَنُ، وَلَا يَغْدُرُ، وَلَا يُمِيتُ، وَإِنَّمَا تَقَعُ فِيهِ أَحْدَاثٌ هِيَ سَبَبُ  
لِذَلِكَ، وَإِنَّ لِهَذِهِ الْأَحْدَاثِ أَسْبَابَهَا الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُدْرَكَ. أَمَّا الثَّنَائِيَّةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي اسْتَأَثَرَتْ بِاهْتِمَامِ الشَّاعِرِ  
الْجَاهِلِيِّ، فَهِيَ ثَنَائِيَّةُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، إِذْ وَجَدَ فِي اصْطِرَاعِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي حَيَاتِهِ، مَا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا، لِذَلِكَ عَمِلَ عَلَى  
التَّأَمُّلِ فِي هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، وَحَاولَ مَعْرِفَةَ دَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، غَيْرَ أَنَّهُ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِهَا الْخَارِجِيَّةِ، وَلَمْ يَأْتِ  
بِشَيْءٍ جَدِيدٍ، فَقَدْ سَلَّمَ بِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، يَصْطُرِعَانِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَيَعْمَلَانِ عَلَى قَلْبِهِ، وَعَدَمَ اسْتِقْرَارِهِ فِي  
الْحَيَاةِ، وَمَا عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا أَنْ يَرْضَى بِمَا تُقَرِّرُهُ لَهُ الْأَقْدَارُ، يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ مَا عَرَفَ بِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، لَا يَبْقِيَانِ  
عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، مَلَازِمَةً لِلْإِنْسَانِ، بَلْ يَتَعَاقَبَانِ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، وَهَذَا يُعْذِرُ سَبَبًا فِي اضْطِرَابِهِ فِي الْحَيَاةِ.  
وَحَاولَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، أَنْ يَخْلَعُوا شَيْئًا مِنْ مَشَاعِرِهِمْ عَلَى الطَّبِيعَةِ، وَأَنْ يَجِدُوا فِي بَعْضِ مَظَاهِرِهَا مَا  
يُذِلُّ عَلَى مَا تَزِدُّهُمْ بِهِ نَفْسُهُمْ، مِنْ مَشَاعِرٍ وَعَوَاطِفٍ، فَكَانَتْ عِنَاصِرُ الطَّبِيعَةِ رَمُوزًا تُعَبِّرُ عَمَّا يَخْطُرُ فِي أَدْهَانِهِمْ  
مِنْ مَشَاعِرٍ وَعَوَاطِفٍ وَصَاحُغٍ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، تَأَمَّلَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، بِأَسْلُوبٍ ذِي نَزْعَةٍ  
قَصَصِيَّةٍ، سَاقُوا فِيهَا خِلَاصَةً مَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ رَحْلَةِ الْحَيَاةِ، يُضَافُ عَلَى مَا أَمَدَّتْهُمْ فِيهِ مُعْتَقَدَاتُهُمْ الدِّينِيَّةُ،  
وَالثَّقَافِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي عَصْرِهِمْ، بَعْدَمَا أَضْفَوْا عَلَيْهَا شَيْئًا مِنْ خِيَالِهِمْ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تُعْنَى  
بِتَصْوِيرِ الْأَحْاسِيسِ، وَالْمَشَاعِرِ، مَوْضُوعَاتٌ رُومَانْسِيَّةٌ، دَارَ حَوْلَهَا الشَّعْرُ الرُّومَانْسِيُّ الْحَدِيثُ، وَهَذَا مَا يُوَكِّدُ أَنَّ  
مِثْلَ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ، كَانَ لَهَا فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مَا يَشْبِهُهَا إِلَى حَدِّ مَا، وَنَقَرُ أَنَّ الشَّاعِرَ الْجَاهِلِيَّ تَنَاوَلَ هَذِهِ  
الْمَوْضُوعَاتِ بِصُورَةٍ تَقْفَرُ إِلَى الْعَمَقِ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ عِنْدَ شُعْرَاءِ الرُّومَانْسِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، لَكِنَّا نَعُدُّ بَدَايَاتِ  
رَأْدَةٍ فِي هَذَا الْمِيقَانِ.

(١) ديوان الأعشى الكبير: ٢٢٧.

(٢) ديوان علقمة الفحل، حققه: لطفي الصقال، درية الخطيب، حلب: ٣٣.

(٣) ديوان النمر بن تولى العجلي، جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م: ٩٨.

(٤) ديوان النابغة الذبياني: ٣٢.

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٢٣.

وأبرز ما يثبُّم به هذا الشعر الذي ينحو منحى الرومانسيَّة، هو لُغَتُهُ التي تميلُ نحو الألفاظ المعنويَّة، التي تدلُّ على معاني العواطف، والمشاعر، والهواجس، علاوة على أنَّهم جاءوا بألفاظ تدلُّ على طبيعة الموضوعات التي عالجها هؤلاء الشعراء، فعندما تدورُ موضوعاتهم حول الطبيعة، فإنَّهم يأتونُ بألفاظ الطبيعة، لكنَّهم يختلفون عن شعراء الوصف التقليدي، في كون هذه الكلمات، لا تقفُ عند حدود معناها الذي وُضِعَتْ له في معاجم اللغة، بل إنَّها تكتسبُ معاني جديدةً، من خلال السياق، الذي وُظِّفَتْ فيه، وهذه المعاني تدلُّ على ما تختزنه نفسُ الشاعر، من مشاعرٍ وعواطفٍ أراد أن يبوحَ بها، وهذه تكادُ أن تكونَ سمَةً للمعجم الرومانسي، غير أنَّ الكلمات لم تكن رومانسيَّةً بغيرِها، وإنَّما في الصياغة، حيثُ تتحوَّلُ هذه الألفاظ إلى ألفاظ موحيةٍ، ومُحلقةٍ في أجواء الخيال، قادرةٌ على تصوير المشاعر والعواطف<sup>(١)</sup>، وقد انتفع الشاعرُ الجاهليُّ، من كَمِّ هائلٍ من ألفاظ الطبيعة، مثل الليل، والنجم، والقمر، والشهاب، والوميض، والبرق، والسنا، والريح، والصبا، والدبور، والبحر، والموج، والماء، والورق، والغصن، والغراب، والبوارح، والبوم، والثرى، والأرض. هذه الألفاظ خلع عليها الشاعرُ الرومانسيُّ شيئاً من مشاعره، فوظفها لتعبيرٍ عن مشاعر الحزن، أو الكآبة، أو اليأس، أو الخوف، فضلاً على أنَّها رموزٌ تعبِّرُ عن الموت أو الفناء، أو الخير أو الشر، ويُمكننا أن نلمسَ ذلك في كثيرٍ من أشعارهم، ومنها قولُ كعب الذي رأى مأساة الإنسان تتمثلُ في الغصن والورق الذي يراه في عنفوان حيويَّته نضراً، ثمَّ بعد ذلك يسيرُ نحو الذبول والاصفرار، والفناء، وهو في هذه الحالة يشبه الإنسان الذي هو في عنفوان الشباب، لكن مع مرِّ الأيام والسنين يسيرُ نحو الكهولة والفناء، فقال:

والمِرءُ والمالُ يَنمى ثُمَّ يَذْهَبُ      مِرُّ الدَّهْرِ وَيَفْنِيهِ، فَيَنسَحِقُ

كالغصنِ بينا تَراه ناعماً هَدِياً      إذ هاجَ وانحَتَّ عن أَفْنائِهِ الْوَرَقُ<sup>(٢)</sup>

وشاع في شعرهم الألفاظ التي تغنى بها هؤلاء الشعراء بعداباتهم، مثل: يَسْلُبُنِي، ويشهدني، ويتفجَّع، ويرميني، وقاتلي، وموحشة، وحزين، وغدور، وخؤون، والموت، وختور، وكتيب، مثل قول عدي بن زيد:

فإن أُمسيْتُ مكتئباً حزيناً      كثيرَ الهمِّ يُشْهَدُنِي الْحَذَارُ<sup>(٣)</sup>

وفي ضوء ما تقدَّم، يبدو لنا أنَّ لغة الشعر شديدة الارتباط، بموقف الشاعر، من الحياة، ورؤيته لها، ويكثرُ في شعر هؤلاء الألفاظ المُشعَّة، وهي ((التي تُثيرُ إلى جانب معناها المعروف، معاني جانبية يكونُ لها وقعٌ كبيرٌ، في نفس القارئ، منفردةً أو متألِّفة مع الألفاظ الأخرى))<sup>(٤)</sup>، ونجدُ لمثل هذه الألفاظ المتألِّفة، صُوراً كثيرةً في شعر هؤلاء، وأنَّها توظفُ في ذهن قارئها وسامعها، كثيراً من المشاعر، والأخيلة، ومن هذه التعبيرات المُشعَّة: (لأمرٍ غيبٍ، وضيفٍ بغيضٍ، وليلة أرمداً، والسليم المُسهَّد، وأرعى النجوم، وأرعى سدوله، وبنات الدهر، وأخنع الدهر بهم، والدهر غول، ويُشهدني الحذارُ، ولياليها قصار،... إلخ).

#### الصورة الفنية:

ابتدع عددٌ من الشعراء في العصر الجاهلي صُوراً شعريَّة تشبَّه إلى حدٍّ ما تلك الصُور التي دعا إليها شعراء الرومانسيَّة في العصر الحديث، إذ اشتراطوا فيها أن تنقلَ مشاعرَ وأحاسيسَ، وأن تتركَ أثراً في نفوس مُتلقيها، وأن توظفُ في نفوسهم عواطفَ شتى، وهذا ما نادى به جماعةُ الديوان، الذين قالوا في التشبيه: ((وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان، فإنَّ الناسَ جميعاً يرونَ الأشكالَ والألوانَ محسوسةً لذاتها، كما تراها، وإنَّما ابتدع لنقل الشعور، واتِّساع مداه، ونفاذه إلى صميم الأشياء، يمتاز الشاعرُ على سواه))<sup>(٥)</sup>، ويمكنُ أن نلمسَ ما قلناه في شعر عدي بن زيد، وهو يُشبَّه حياة الإنسان، كالشهاب يتوهَّجُ، ثمَّ ينطفئُ، فهذا التشبيه يُثيرُ في نفس قارئه مشاعر الخوف، من الحياة، وما تؤدي إليه من مصيرٍ مؤلمٍ، كذلك تبعثُ في نفس الإنسان روحَ الشفقة على حياته التي يُجهزُ عليها الموت، ويحرمها من لذة الحياة، ويجعلها نسياناً منسياً<sup>(٦)</sup>، وهو تشبيه تمثيليٌّ يكونُ وجهُ الشبه منتزِعاً من أشياء متعدِّدة<sup>(٧)</sup>، فقد شبَّه حياة الإنسان بلمعان الشهاب، فقال:

بأنَّ المِرءَ لم يَخْلُقْ حديدًا      ولا هَضْبًا توقَّاه الوَبَارُ

ولكنَّ كالشهابِ فثُمَّ يخبو      وحادي الموت عنه ما يحارُ<sup>(٨)</sup>

ويوقظُ تشبيهه بشر بن أبي خازم، في نفس المتلقي، مشاعر الحزن، وهو يُشبَّه الشباب، الذي هو أجمَل سنين العمر، عند الإنسان بسحاب الريح، ووجه الشبه هنا هو الذهاب وعدم الارتجاع، والتشبيه يُسمَّى البلاغيُّون تشبيهاً مؤكداً مُفصَّلاً حذفت فيه الأداة، ودُكرَ وجهُ الشبه<sup>(٩)</sup>:

(١) دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د.محسن اطيمش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م: ١٨ .

(٢) ديوان كعب بن زهير رواية الشُّكْرِي: ١٦٦ .

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٣٢ .

(٤) النقد اللغوي عند العرب، الدكتور نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م: ٢٣١ .

(٥) الديوان (في الأدب والنقد) لمؤلفه: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط٣: ٢١ .

(٦) البلاغة فنونها وألفاظها: ٥٨ .

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٣٣ .

(٨) البلاغة فنونها وألفاظها: ٥٨ .

قليلاً والشباب سحاب ريج إذا ولّى، فليس له ارتجاع<sup>(١)</sup>

وهذا التشبيه يُثير التأمل، ويترك مشاعر زاهرة بالألم واللوعة تُجسّد خيبة أمل الإنسان في هذه الحياة. ويأتي امرؤ القيس، بتشبيه زاهر بالمشاعر المرعبة، مؤكّد مفصل، فقد شبّه فيه الدهر غولاً ختوراً، ووجه الشبه بينهما أنّ كليهما يلتهمان الرجال، وحذفت منه الأداة، ودُكر فيه وجه الشبه، يَزاد على أنّه جاء بمجاز عقليّ نسب إلى الدهر أفعالاً لم يقدّم بها؛ لأنّ الدهر زمنٌ، والزمن هو الوعاء، الذي تقع فيه الأحداث، فهو لم يلتهم الرجال، بل أنّ أحداثاً تقع فيه هي التي تقتل البشر، ونُسبت إليه؛ لأنها وقعت فيه، فقال:

ألم يحزنك أنّ الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجال<sup>(٢)</sup>

ونجد هذه الحقيقة التي أدركها الإنسان، وهي تعاقب الأيام عليه والسنين، وهو يعيش في هذه الحياة، تسوقه نحو مصيره المحزن، الذي كُتب عليه، فكان لها أثر كبير على نفسه، لذلك نجد أنّ كثيراً من الشعراء، عبّروا عن مشاعرهم بصور متعدّدة، تصبّ جميعاً في الخشية من الزمن، ومنهم حاتم الطائي الذي شبّه الأيام والشهور والسنين التي يقضيها الإنسان في حياته بالمطايا التي تقلّ الإنسان نحو الهرم والشيخوخة والموت، فقال:

وما هي إلا ليلة، ثمّ يومها وحوّل إلى حوّل، وشهر إلى شهر

مطايًا يقربن الصحيح إلى البلى ويُدنين أشلاء الهمام من القبر<sup>(٣)</sup>

وإنّ مثل هذا التشبيه يبعث في نفس المتلقّي، الخوف، والرعب، وهو يُدرك أنّ الأيام تقوده نحو حتفه. ويسوق لنا كعب بن زهير، تشبيهاً تمثيليّاً، يُعبّر عن مشاعر حزينة، وهو يرى حال المرء، تشبّه الغصن، الذي يبدأ غضّاً، ناعماً، يزهر بطراوته، وحُضرته، غير أنّ مرور الأيام، والأعوام، تُذهب هذه النضارة، وتسير به، نحو الذبول، والفناء، وإنّ هذا الضرب من التشبيه يترك في نفس المتلقّي، مشاعر الحزن والتشاؤم واليأس، وخبية الأمل من هذه الحياة، فقال:

والمرء والمال ينمى ثمّ يذهب كالغصن بينا تراه ناعماً هدياً

ورسم طرفه بن العبد، صورةً مخيفةً، للموت، فقد شبّه قدر الموت، بالحبل الذي شدّ أحد طرفيه، على رقبة الإنسان، والآخر تركّ بيد الأقدار، بحيث أنّها متى شاءت تجذب الحبل لتسوقه إلى حتفه، فقال:

لعمرك أنّ الموت ما أخطأ الفتى لمن يشأ يوماً يفذه لحتفه

وصور النابغة الذبياني، خوفه من النعمان بن المنذر، بهذه الصورة التشبيهية الجميلة، فقد صور سلطة النعمان وسطوته، بالليل الذي يطبق على الجميع، ولا مفرّ منه، وإن اعتقد الخائف منه، بأنّ الأرض واسعة ويمكن أن يكون بأرجائها البعيدة، بمنأى من عقاب النعمان، إلا أنّ ذلك لم يسعفه، فأنه يدركه، كما يدرك الليل الجميع، فهو في قبضته، مهما حاول ذلك، فقال:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع<sup>(٤)</sup>

فهذه الصورة التشبيهية، تبعث التأمل، وتترك في نفس قارئها، ((بما يحمل الليل من دلالات الغموض، والرهبة، وسرعة الانتشار، واستحالة أن تبقى بقعة من الأرض، دون أن يصل إليها الليل، وهذا يعني أنّ التشبيه يخضع كغيره من الصور البلاغية الأخرى إلى مقدرة الشاعر، على توظيفه، بما يخدم تجربته الشعرية))<sup>(٥)</sup> ويشبّه عدي بن زيد، ما آلت له حال بني الأصفر ملوك الروم، وكذلك ملوك الفرس، بعد العزّ والجاه والسلطان، إلى ورق جفّ، ثمّ بعثرته رياح الصبا والدبور، وهذا التشبيه نقل لنا خيبة الإنسان في هذه الحياة، وضياح آماله ومأساته، فقال:

ثمّ أضحوا كأنهم ورق جفّ، فألوث به الصبا والدبور<sup>(٦)</sup>

ونجد مثل هذه التشبيهات، التي تترك انطباعاً نفسيّاً، في شعر امرؤ القيس، وهو يُفصّل عن حالته النفسية، وهو يشبه البرق الذي يبرق بين حين وآخر، بمشي البعير الذي يشكو من ألم في إحدى أرجله، ممّا

(١) البلاغة فنونها وأنماها: ٥٨.

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم: ١١٢.

(٣) ديوان امرؤ القيس: ٣٠٩.

(٤) ديوان حاتم الطائي: ١١٠.

(٥) ديوان كعب بن زهير: ١٦٦.

(٦) ديوان طرفه بن العبد: ٣٤.

(٧) ديوان النابغة الذبياني: ٣٨.

(٨) الصورة الشعرية في النقد العربي والإنجليزي دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث، حيدر محمد غيلان، إصدارات وزارة الثقافة والساحة، صنعاء، ٢٠٠٤م: ٢٠.

(٩) ديوان عدي بن زيد العبدي: ٩٠.

اضطره إلى المشي على ثلاث قوائم، فيكون مشيه بما يشبه الوثب، ثم يستريح، ثم ينثب، والتشبيه هنا، يُعبر عن مُعاناة نفسية، ويبدو ذلك في كلمة (أعني) فالبرق يبعث الخوف والرعب في نفس الشاعر، فيقول:

أعني على برق أراه وميض  
يضيء حبياً في شمرايح بيض  
ويهدأ تارات سناه وتارة  
ينوء كتعتاب الكسير المهيض<sup>(١)</sup>

وتكثر في هذا اللون من الشعر، الاستعارات، والكنيات؛ لأن مثل هذه المشاعر، التي تُفعم بها نفوسهم، لا يمكن التعبير عنها بصورة مؤثرة، إلا من خلال الصور الشعرية الموحية، والمُحلقة في أجواء الخيال، فهي الكفيلة في نقل أدق المشاعر التي يحس بها الشاعر.

وأجمل تلك الصور الاستعارية، الصورة التي رسمها امرؤ القيس، لليل ليُعبّر من خلالها عن همومه وأحزانه، فقد شبه الليل بالبعير، وحذف المشبه به وترك لازمة من لوازمه (التمطي بصلبه)، وهو يُعبّر عن طول الليل، ((وأردف أعجازاً وناء بكل كلٍ عن ثقل الهموم على نفسه، وكيف أنها انتشرت، وامتدت في كل زوايا نفسه في اطمئنان وهدوء))<sup>(٢)</sup>، فقال:

وليل كموج البحر أرخى سدولة  
فقلت له لما تمطي بصلبه  
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي  
علي بأنواع الهموم ليبتلي  
وأردف أعجازاً وناء بكل كل  
بصبح، وما الإصباح عنك بأمثل<sup>(٣)</sup>

ويرسم لنا الشاعر قيس بن الخطيم، صورة استعارية، تبعث انطباعاً حزيناً، في نفوسنا، وذلك في قوله:  
ومن يك غافلاً لم يلق بؤساً  
ينخ يوماً بساحته القضاء<sup>(٤)</sup>

فجعل القضاء والقدر، بترك، ويجثم بساحته، كما يترك البعير، وهي استعارة مكنية، إذ حُذف المشبه به، وهو البعير، وترك لازمة من لوازمه<sup>(٥)</sup>، وفيها ما يدل على الخوف، فالموت ينوخ ويجثم على الناس، كما يجثم البعير بثقله، فيخلق الأنفاس، علاوة على أنها تدعو الإنسان إلى أن لا يغفل، أو يغتر بالحياة، وإن كان مُنعماً، فإن هذا النعيم لا يشفع له عن الموت.

ومن الاستعارات التي تعنى بتصوير المشاعر، وتوقظ مشاعر حزينه في نفس مُتلقيها، قول زهير بن أبي سلمى:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة  
وغري أفراس الصبا ورواحلة<sup>(٦)</sup>

استطاع زهير أن يستودع في نفوسنا، شعوره بالمرارة، وخيبة الأمل، وهو يصحو على واقع جديد يجد نفسه ممن لا تكثر به النساء، بعدما رمى به العمر من الشباب إلى المشيب، وقد عبّر عن ذلك، باستعارة جميلة (وغري أفراس الصبا ورواحلة)، والأفراس جمع فرس؛ الحيوان المعروف الذي توضع عليه الأرحال، وهي جمع رخل، والصبا والصبوات، ما يلهو به الإنسان من أيام شبابه... والإبداع في هذا المعنى الاستعاري في ضوء التركيب الشعري<sup>(٧)</sup>، فقد جعل أفراس الصبا ورواحله تعري، وفرس غري ليس عليه سرّج، وهذا ما يفقدها زينتها التي تصبح الفرس جميلة بارئدائها، وهي صورة للشاعر، وهو يفقد زينته بفقد الشباب، ممّا جعل سلمى أقصرت عن حبه، أي كفت عن الحب وأشواقه، أو عدلت عن الهوى عندما ذهب الشباب، ورمت به الأيام في عصر الشيخوخة والهرم، ولم يعد كما كان محط أنظار الفتيات الجميلات، ممّا ألمه ذلك وآذاه كثيراً.

وإن هذا اللون من الاستعارات يهدف إلى ((إظهار ما يجول في نفس الإنسان من عواطف، وإحساسات وخيالات وغيرها))<sup>(٨)</sup>، إذ إن الصورة الاستعارية، كفيلة بأن تنقل أدق تلك المشاعر، وهذا ما وجدناه في معظم هذه الاستعارات، ومنها ما قاله الشاعر ليبيد بن ربيعة العامري:

لما الله هذا الدهر، إني رأيت  
بصيراً بما ساء ابن آدم مولعا<sup>(٩)</sup>

فقد جعل الدهر يبصر، ويدرك ما يفعل، فقد شبهه بالإنسان، وحذف المشبه به، وترك لازمة من لوازمه، وهي (الإبصار)، وجاء بمجاز عقليّ علاقته الزمانية، فقد نسب إلى الدهر ما لم يقدّم به، وهو الإساءة للإنسان، وبهذا أضفى حيوية على الدهر بحيث جعله يتحكّم في إيداء الإنسان، وما على الإنسان أمام هذه القوة القاهرة، التي لا حول له نحوها، ولا قوة إلا أن يُعبّر عن مشاعر الانكسار، واليأس. ومثله قول زهير بن أبي سلمى يُعبّر عن

(١) ديوان امرؤ القيس: ٩٥.

(٢) التفسير النفسي للأدب: ٩٠.

(٣) ديوان امرؤ القيس: ١١٧.

(٤) ديوان قيس بن الخطيم: ٧١.

(٥) البلاغة فونها وأفانها: ١٧٩.

(٦) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ١٠١.

(٧) ينظر: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ١١٩.

(٨) المصدر نفسه: ١١٩.

(٩) شرح ديوان ليبيد بن ربيعة العامري: ١٧٣.



مرارته في هذه الحياة، باستعارات جميلة، فالدهر يُقرعُ العظم، وهي استعارة تنقلُ مشاعر الألم المُضْمَمُ ممَّا يفعلُه الدهر، وهو يقتنصُ أقرباءَ الشاعر الواحد تلو الآخر، وكذلك مجازٌ عقليٌ نسب للدهر ما لم يَقم به، وهو أن يفجع الشاعر بموتِ أعزائه، فقال:

يادهرُ قد أكثرت فجعتنا      بسرَاتنا، وقرعت في العظم<sup>(١)</sup>

وكثرت الكنايات في شعرهم؛ لأنها تتفق ومنهجهم الذي يشترط في الخيال أن يُثير التأمل، وينقل المشاعر، ويوقظ العواطف، وإن الكنايات من شأنها أن تضطلع بهذه المهمة، ((فللكناية وظائف وفوائد لا تقوم بها الاستعارة ولا التشبيه؛ لأنَّ لها نمطاً خاصاً وموطناً مختلفاً، فبدايتها واضحة، ثم تتصاعد في المعنى حتى تصبح عند المُتلقي العادي ألغازاً وأحاجي، وتستغرق رموزها ومعانيها إلى أن تُصبح ذات دلالات في الصفات، أو الموصوفين))<sup>(٢)</sup>، وميزة الكناية هي ((أننا نستطيع أن نُعبّر بواسطتها عن كثير ممَّا يتحاشى التصريح به... ألا ترى أنَّك بأسلوب الكناية يُمكنك أن تشفي غلة نفسك))<sup>(٣)</sup>، وقد تفنن بعض الشعراء الجاهليين، في توظيف الكناية للتعبير عن مشاعر الحزن، من خلال بعض المُفارقات في الحياة، وما ينجم عنها من نهاية مؤلمة، فهذا عدي بن زيد، من أجل أن يكون لكلامه وقع مؤثّر، جعل الإنسان يدرك حقيقة ما يحيق به من مخاطر، وأن لا يعتزّ بالحياة مهما حنت عليه بقطوفها الدانية، وفي ذلك يقول: (يشربون الخمر بالماء الزلال)، ويريد به كناية عن الناس المُنعَمين، الذين هم أيضاً سيظالمهم الموت، ويعصف بهم، وبنعيمهم، وبهذا يترك في نفس المُتلقي لوعةً والماء، فقال:

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عندنا      يشربون الخمر بالماء الزلال

عمروا دهرًا بعيش حسن      آمني دهرهم غير عجال

ثم أضحوا أخنع الدهر بهم      وكذلك الدهر يودي بالرجال<sup>(٤)</sup>

ويأتي امرؤ القيس، بكنايات زاخرة بالمشاعر الحزينة واليائسة، في قوله:

أرجي من صروف الدهر شيئاً      ولم تغفل عن الصم الهضاب

ويذكر هذا ما قاله الفيلسوف اليوناني (هرقليطس): ((أنت لا تنزل إلى النهر مرّتين)) لأنَّ كل شيء في هذه الحياة، يطالُه التغيير، ويمسُه الفناء، ولم يبق شيء على حاله، فمثلما يولد الإنسان ويشبُّ في هذه الحياة، ويصبح في عفتوانها، غير أنه بعد ذلك يهرم ويموت، وتشترك مع الإنسان كل الأشياء في الطبيعة بما فيها من الجبال وصخورها الصم، لم تسلم ممَّا يفعلُه بهما الدهر من أعمال التعرية، فتتخرا وتتحول إلى أتربة مع مر الأزمان، والإدهور، وهذا ما أحزن امرؤ القيس، ونعص عليه عيشه، وهو يرى نفسه، فقوله: (سأنشب في شبا ظفر وناب) كناية عن الموت، ورسم للموت صورة مرعبة ومُخيفة تعبر عن قلقه في الحياة، بقوله:

وأعلم أنني عمّا قليل      سأنشب في شبا ظفر وناب<sup>(٥)</sup>

ووظف كثير من الشعراء، الغراب الأبقع، أو الأسود، كناية عن تبيد الشمل بين الأهل، والأحبة، وكانوا يتشاءمون منه، بل يتطيرون به، ولا يطيقون رؤيته، فرويته توجع في نفوسهم مشاعر الخوف، والخشية، ممَّا تجلبه هذه الرؤية، من شر، وفي ذلك قال الشاعر عنترة بن شداد:

ظعن الذين فراقهم أتوقّع      وجرى بينهم الغراب الأبقع<sup>(٦)</sup>

فعبارة (وَجَرى بينهم الغراب الأبقع) كناية عن الفراق المؤكّد الوقوع؛ لأنَّ رؤية الغراب تحتم وقوع الفراق. ومثله قول النابغة الذبياني، الذي أشرك مع الغراب، البوارخ، وهما ممَّا يتطيّر العربُ منهما شرّاً، (فرزع البوارخ أن رحلتنا غداً) أي أن في غد تفريق الأحبة، وكذلك (خبرنا الغراب الأسود) كناية عن أن غداً فيه تفريق الأحبة، وما يُصاحب ذلك من هواجس الخوف، والحزن، فقال:

زعم الغراب بأن رحلتنا غداً      وبذلك خبرنا الغراب الأسود<sup>(٧)</sup>

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصي      ولا زاجرات الطير ما الله صانع<sup>(٨)</sup>

الخاتمة

إنَّ خلاصة ما توصّل إليه البحث، يمكن إيجازُه بالنقاط الآتية:

(١) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ٢٨٢.

(٢) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ١٣٥.

(٣) البلاغة فونما وأفتانها علم البيان والبدع: ٢٧٠.

(٤) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٢ - ٨٣.

(٥) ديوان امرؤ القيس: ٩٨، أنشب: أعلق، وشبا: كل شيء حده.

(٦) أشعار الشعراء الستة الجاهليين: ١٤٣/٢.

(٧) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩.

(٨) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٢.

إنَّ ظهور هذه الأصول الرومانسيَّة في الشعر الجاهلي، يرجع إلى عوامل، منها ما يرجع إلى البيئة التي نشأ فيها هؤلاء الشعراء، وهي بيئة صحراوية مفتوحة الأفق، وتمتد مساحات شاسعة لم يدرك هؤلاء الشعراء أسرارها، ولا يعرفون ما تُخبئ لهم هذه المفاخر الشاسعة لسكانها، فقد لُفَّها الغموض، وجعلهم يشعرون بالقلق والخوف، وهم يعيشون فيها من غير أن يعرفوا حقيقتها، فضلاً على أنَّها قليلة الموارد، شحيحة المياه، تضطرب بصراعات وحروب، جعلت الناس الذين يعيشون فيها لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أموالهم، ممَّا زاد ذلك من كآبة نفوسهم وقتامتها.

ونجم عن ذلك أنَّ الشاعر الجاهلي عني بمشاعره الذاتية نحو الحياة والموت، وحاول أن يعرف أسرارهما؛ من أجل أن يبعث الطمأنينة لنفسه في هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر التي لا تستقر على حال، فكانت ثنائية الحياة والموت، هي الموضوع الرئيس الذي دار حوله معظم شعرهم، غير أنَّ هذا الشعر كان يفتقر إلى العمق، إذ توقفت الشاعر عند حدود ظواهر الأمور، فأخذ يُعلِّل فيها ما تطرحه نفسه من أسئلة وهواجس ومخاوف، بتعليقات بسيطة، فعزا الموت إلى الدهر، ورأى الزمن قاهراً للإنسان.

وتفرَّع عن هذا الموضوع الرئيس (الحياة والموت) موضوعات فرعية، منها الخلود، فحاول بعض الشعراء على شاكلة الرومانسيين، أن يدركوا سرَّ الخلود، غير أنَّهم رجعوا من تلك التأملات بخيبة أمل، إذ رأوا في الخلود ضرباً من المستحيل، وما على الإنسان إلا أن يستسلم لإرادة الأقدار.

وكذلك دار شعرهم على ثنائية الخير والشر وهي من الموضوعات الفرعية التي لها علاقة مباشرة بموضوع الحياة والموت، فرأى الشاعر الجاهلي في اصطراع الخير والشر، ما يُنغص حياته ويكون سبباً في نكوصها وانحدارها نحو الموت، يزداد على أنَّهم رأوا الشرَّ يُجسد لهم من خلال بعض الحيوانات التي يتطيرون منها مثل الغراب، والبوم، والطيور الأخرى، فهي تنزل الشرَّ بهم، من خلال تفريق الأهل والأحبة.

ومن الموضوعات الفرعية الأخرى التي أنبثقت من الموضوع الرئيس الحياة والموت، ثنائية الشباب والشيب التي جسدت صراع الإنسان مع الزمن، إذ رأى الشاعر الجاهلي من الزمن سبباً رئيساً في مُعاناته في هذه الحياة، فالدهر خورن يرميه بكلَّ ما يُعكر صفو حياته، وإنَّ الأيام تسوق الإنسان نحو حتفه، علاوة على ما يعنيه الشباب كونه أحلى سنين العمر، بزواله تذهب أجمل ذكريات الإنسان، وتحلَّ محلها السنين التي تُشعر الإنسان بإخفاقه في الحياة نظم بعض الشعراء مشاعرهم نحو الحياة والموت، بقصائد طويلة ذات منحنى قصصي، على شاكلة بعض الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث، وقد وُفق بعضهم بتوظيف القصص التاريخي، لتعزيز ما ذهبوا إليه، بأنَّ الحياة فانية، وإنَّ الموت واقع ولا رادَّ له، ممَّا عزز مشاعر الحزن واليأس في هذه الحياة، وجاء بعضهم بصور شعريَّة تشبه الصور التي عبَّر من خلالها الشعراء الرومانسيون عن مشاعرهم، فقد خلَعوا شيئاً من مشاعرهم على الطبيعة، ورأوا في ظواهر الطبيعة، ما يُعبر عمَّا تجيش به نفوسهم من مشاعر نحو الحياة والموت والخلود، يُضاف على ما يُرافق ذلك من مشاعر الخوف والقلق واليأس. وعبر بعض الشعراء الجاهليين عن مشاعرهم، بالصور الشعريَّة التي تُعنى بنقل المشاعر، وتدعو للتأمل، وتترك في نفس المُتلقي انطباعاتاً مُعيَّنة، وهم في ذلك يشبهون الرومانسيين في العصر الحديث، فقد ابتعدوا عن التشبيهات الجسدية، وجاءوا بصور شعريَّة زاهرة بالمشاعر، وتدعو إلى التأمل، وتوقظ في نفس المُتلقي عواطف مُعيَّنة.

## روافد البحث

- ١- الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمداني، دفاق مصطفى أحمد، دار الكتب، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- ٢- أشعار الشعراء السمة الجاهليين، الأعلام الشتتري، دار الأفق الجديد، بيروت.
- ٣- الأغاني، لابي الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت.
- ٤- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، مطبعة الرسالة، مصر، د.ت.
- ٥- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥م.
- ٦- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣م.
- ٧- البلاغة فونها وأفنانها، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط ١، الأردن.
- ٨- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت.
- ٩- التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط ٤، ١٩٨١م.
- ١٠- جماعة الديوان، الدكتور بسري محمد سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٧م.
- ١١- جهود استشرافية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم، ريتانا ياكوبي نموذجاً، د. عبد القادر الرباعي، دار جرير، ط ١، د.ت.
- ١٢- الحماسة البصرية، لملي بن أبي الفرج البصري (ت ٢٥٩هـ)، تحقيق: د. أحمد عبد المعيد خان، الهند، ١٩٦٤م.
- ١٣- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقديما، العبد لكانتي الزورني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المعيد، مطبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م.
- ١٤- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى جبار، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م.
- ١٥- الحيوان، لابي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، د.ت.
- ١٦- دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد.
- ١٧- دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د. محسن اطيش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦م.
- ١٨- الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار النهضة للطبع والنشر، مصر، القاهرة.
- ١٩- الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٢٠- ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، بغداد، ١٩٧٠م.
- ٢١- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر.
- ٢٢- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
- ٢٣- ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزة حسن، دمشق، ١٩٧٢م.
- ٢٤- ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. حنا نصر الجتي، دار الكتب العربي، بيروت.
- ٢٥- ديوان شعر المتنبي العدي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م.
- ٢٦- ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي بجلب.
- ٢٧- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٩٧٥م.
- ٢٨- ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبار المعيد، بغداد، ١٩٦٥م.
- ٢٩- ديوان علقمة الفحل، حققه: لطفي الصقل، درية الخطيب، حلب.
- ٣٠- الديوان (في الأدب والنقد) لمؤلفيه: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط ٣.
- ٣١- ديوان قيس بن الخطيم، حققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م.
- ٣٢- ديوان كعب بن زهير، رواية المنكري، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجمع، بيروت، ١٩٦٨م.
- ٣٣- ديوان لآلي الأفكار، عبد الرحمن شكري، مطبعة منشآت المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.
- ٣٤- ديوان المرقشين، تحقيق: كارين صابر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.
- ٣٥- ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصمد، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٣٦- ديوان النابغة الذبياني، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذخائر العرب ٥٢، دار المعارف، ط ٣، ١٩٩٠م.

- ديوان النمر بن تولب العكيلي، جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقاء، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شليبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م.
- شرح ديوان لبید بن ربیعۃ العامري، حققه وقدم له: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢.
- شرح شعر زهير بن أبي مئلى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط٣، مطبعة الغوثاني، دمشق، ٢٠٠٨م.
- شعر أبي زيد الطائي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م.
- شعر السموال، تحقيق وشرح عيسى سباب، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥١م.
- الشعر العربي في المهجر، د. إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.
- الصورة الشعرية في النقد العربي والإنجليزي دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث، حيدر محمد غيلان، إصدارات وزارة الثقافة والساحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.
- الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت.
- عبد الرحمن شكري ناقداً وشاعراً، د. عبد الفتاح عبد المحسن الشطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩م.
- كتاب العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: يوسف هود، شرك دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الموت من منظور الذات قراءة في جدارية محمود درويش، د. عبد السلام المساوي، مجلة الفكر، العدد (٤)، المجلد (٣٥)، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م.
- نصوص من الشعر الجاهلي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي ود. محمود عبد الله الجادر ود. بهجت عبد الغفور الحديثي.
- النقد اللغوي عند العرب، الدكتور نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.